16 em Année No. 793 — Lundi — 13 — 9 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــصـــ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ ذو القعدة سنة ١٣٦٧ — ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

مالِىَ لا أكتب ؟

يعتب علىَّ صديقى العباس أننى لا أكتب فى هـذه الأيام للرسالة ، ويحتج لعتابه بأن دواعى الـكتابة فى ريف المنصورة ، أو فى ظلال (الـكافورة) ، أقوى من أن ينهض لها عذر من اعتلال أو اشتغال أو إراحة . وواقع الأمر أنى لم أكن كاليوم أرهفَ شعوراً بالجمال ، ولا أبلغ تأثراً بالطبيعة ، ولا أشد انطواء على النفس ؛ ولـكن أكثر ما يتمثل فى الخيـال ، أو يخطر على البـال ، سوانح هى بالشعر أشبَه وإلى الغناء أقرب ؛ فإذا همَّ باقتناصها القلم اندلعت من جوانب النفس زفرات وَقودها الصهيونيون واللاجئون والحرب والهـدنة وترومان وستالين وبرنادوت ومجلس الأمن وهيئة الأمم ، فأنصرف عن الغناء إلى الرثاء ، وأنتقـل من الضحاك إلى البكاء . وأهمّ بتلحين الألم وتوقيع الأنين ، فتنبعث من نواحى العقل أصوات تستنكر وتستنفر وتقول : لقد خطبنا حتى جف الريق ، وكتبنا حتى نفد المداد ، وبكينا حتى نضب الدم ، فما الذى أغنى عنا كل أولئك ؟ ألا يزال أرانب اليهـود مغرورين يتبجحون بالدولة والجيش ؟ ألا يزال عرب فلسطين مشردين يكابدون ذل الاغتراب وشظف العيش ؟ ألا يزال ترومان الأخرق يجرى على سـياسة الهوى والطيش ؟ ألا يزال برنادوت الغر يستر عجزه بالمداهنة والغيش ؟ فأصيخ إلى صوت العقل وأقول : بلى ، كل أولئك لا يزال ، وأتمنى على الله رب العالمين وناصر العرب والمسلمين ، أن يستحيل اللسان فى فى حساماً يضرب ، واليراع فى يدى سناناً يطعن ، والغضب فى نفسى عاصفة تدمر ، والضعف في جسدى قوة تُبيد . فأنا الآن مترجح بين طرفين كلما ملت إلى أحدهما جذبنى إليه الآخر أنظر بعينى إلى مفاتن الطبيعة فى ضفاف النهر وحواشى الحقول ومماشى الرياض فأبتهج ، ثم أنظر بقلبى إلى مخازى الناس فى صور النذالة والجور والبؤس بفلسطين فأكتئب ، ثم يصيبنى العى والخرس لأن ابتهاجى عابر لا يحـدث غير الافترار ، ولأن اكتئابى عاجز لا يبعث غير الدمع .

وإذا حصلت من السلاح على البكا ... فحشاك رُعت به وخدك تقرع

إن نـكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطّتا على كل حاسة وغلبتا على كل عاطفة ؛ فالفكر فيهما والحديث عنهما ملء القلوب وشغل الألسن ؛ ولـكن الـكلام هواء ، والبكاء ضعف ، والمنى أباطيل ، والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ؛ فلم يبق إلا أن نسكت لنعمل ، وندبر لننفذ ، ونتقوى لنسود ، ونتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ، ونظلم لنُحترم !

لوكان فى الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية ، ولو كان فى الناس عدل لما اصطلحت على ظلمنا الشيوعية والرأسمالية ، ولو كان فى الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بنى يهوذا بقية ! ألاَ إن أفدح الخطوب أن يخاصم الأسود القرود ، وإن أقبح الحروب أن يقاتل العرب اليهود !

فلو أنى بُليت بهـــاشمى ... خؤولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولـكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

(المنصورة)

احمد حسن الزيات

لمحة من سيكولوجية الطفل

للدكتور فضل أبو بكر

غاية كل كائن حي مما يبديه من مجهود وما يبذله من حركة إنما ترمى إلى هدف واحد هو الحصول على شيء من التوازن ، للاءمته للبيئة التي تكتنفه والوسط الذي يعيش فيه وهو شرط أساسي لبقائه وحفظ نوعه ، وكلما كان الكائن معقد التركيب دقيق الصنع كانت بيئته معقدة صعبة وكان مجهوده أكبر وعناؤه أشد لملاءمة تلك البيئة .

والبيئة فيما يتعلق بالإنسان الذي نحن بصدد دراسة جانب من سيكولوجية طفله — تنقسم إلى قسمين هما :

١ — البيئة الطبيعية « Cosmique » .

٢ — البيئة الاجتماعية « Social » .

فالأولى تشمل الأرض التي يعيش فوق أديمها من خصبها وجدبها ومن نجدها وغورها ومن ماء عذب وأجاج ومن طقس رطب وجاف ، ومناخ حار ومعتدل وبارد إلى غير ذلك من المحيط الطبيعي . والثانية أي الاجتماعية هي اصطناعية عرفية من خلق الإنسان نفسه ؛ لهذا تختلف باختلاف الأمم والأجناس والعادات والبقاع ، وتخضع لمجموعة من القوانين السماوية والوضعية تلزم الإنسان بما عليه من واجبات نحو غيره وبما له من حقوق لدى المجتمع ، وهي بيئة أكثر تعقيداً من الأولى لأنها كما سبق ذكره من عمل الإنسان وهو عمل ناقص إذا قورن بعمل الطبيعة ؛ ومن هنا كانت مضطربة دائمة التحول والتبدل تنشد الكمال بقدر المستطاع .

فالإنسان يؤثر في محيطه بنوعيه من طبيعي واجتماعي ، ويحاول إخضاعه لحد ما ليكون ملائماً له وهو ما يحدث بظاهرة الإخضاع « والتمثيل » « Assimilation » كما أن بيئته نفسها تحاول أن تؤثر فيه وتخضعه لحد ما ليكون ملائماً لها وهو ما يحدث بظاهرة الخضوع والتكييف « Accomodation » وهو تحوير وتبديل جسماني ونفساني لذلك الغرض .

فهو لهذا في كر وفر مع بيئته يخضعها ويخضع لها حتى تناسبه ويناسبها ، ولكن المناسبة المنشودة لا يمكن أن تتم وتكتمل وإنما هي نسبية وغير مستقرة ، ومن هنا كانت حركته الدائمة وتغيره المستمر ، وهما أبرز مميزات الحياة ، وما نمو الطفل وتغيره الجسمي والعقلي إلا سعياً وراء ملاءمة البيئة .

يعلم مما تقدم أن ظاهرتي التمثيل والتكييف ، أو بعبارة أخرى الإخضاع والخضوع ، تحدثان في آن واحد ولكن بنسبة غير متساوية ، أي أن أثر إحداهما قد يكون أقوى من أثر الأخرى؛ « فدارون » « Darwin » مثلا يؤمن بأن إخضاع الكائن الحي لبيئته هو أقوى من خضوعه لها ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد يشرح لنا نظرية التطور والتنافس الحيوي من أجل البقاء والخلود ، وأن طائفة من علماء الطبيعة تؤيد « دارون » وتحذو حذوه .

وهنالك فريق آخر من العلماء يخالفون « دارون » ويعتقدون عكس ما يعتقد وعلى رأسهم العالم « لامارك » « Lamarck » وفي نظرهم أن البيئة هي التي تخضع الكائن أكثر مما تخضع له ، وأن على الكائن أن يبدل من ذاته ، ويغير مما بنفسه حتى يكون أكثر ملاءمة لها .

كذلك الفلاسفة من علماء الاجتماع والأخلاق ينقسمون إلى قسمين بالنسبة للبيئة الاجتماعية :

فالفريق الأول ورائده الفيلسوف « نيتشه » «Nieteschz» يرى ما يراه « دارون » في البيئة الطبيعية ، وهي فلسفة القوة والبطش وأن « الرجل المثالي » في نظره الذي يستحق شرف هذا اللقب هو الذي يخضع العالم ويبطش بالرجال حتى يدينوا له وينقادوا إليه ، وأن المسالمة والتسامح والعطف والعفو ما هي إلا صفات العاجز الضعيف وهي تباعد ما بين من يتصف بها عن المجد والسلطان على حد قول أبي الطيب :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

والفريق الثاني وزعيمه « أبيقور » Epicure ومدرسته ينادي بعكس ما ينادي به نيتشه وهي فلسفة الخضوع والمداراة والمصانعة ، فلسفة « الدهريين » ، و« الرجل العاقل » في نظره هو الذي يخضع

لبيئته ويتماشى مع دهره على حد قول من قال :

ودر مع الدهر وانظر في عواقبه حذار أن تبتلي عيناك بالرمد
والبس لكل زمان بردة حضرت حتى تحاك لك الأخرى من البرد

هذه مقدمة موجزة لابد منها لتفهم بعض مظاهر سيكولوجية الطفل لأن نموه وتطوره ما هما إلا نوع من ضرورة ملاءمة البيئة ، وهذا النمو نفسه هو تغيير مستمر في الشكل « مورفولوجي » ووظيفي « فسيولوجي » ونفساني « سيكولوجي » ، فالحاجة أو الوظيفة تخلق العضو وتكيفه بشكل خاص « Le besoin crée L. organe » وكذلك العضو يخلق الحاجة أو الوظيفة ويطبعها بطابعه « L. organe crée le besoin » .

نرى مما تقدم أن « المورفولوجى » مرتبط « بالفسيولوجي » كما أن الأخير مرهون « بالسيكولوجي » ومن هنا يحق لنا القول بأن البيئة و « المورفولوجى » و « الفسيولوجي و «السيكولوجي» هي وحدة — كوحدة وادي النيل — لا تقبل التجزئة ، ونسيج واحد متناسق متجانس لحمة وسدى .

نمو الطفل :

هنالك ظاهرة تسترعي الانتباه وتلفت النظر فيما يتعلق بنمو الطفل ، أو بعبارة أخرى ملاءمته لبيئته ، وتلك الظاهرة هي طول المدة اللازمة لذلك ولاسيما إذا قارناها بمتوسط عمر الإنسان (نحو خمسين عاماً في الغرب وأربعين عاماً في الشرق) فهو يستغرق أكثر من ثلث متوسط عمره كرجل ليبلغ القمة من نموه الجسمي وهي سن العشرين أو الواحد والعشرين ، ومن هنا يمكن أن نستخلص قانوناً عاماً يمكن تطبيقه على الإنسان والحيوان ، وفحواه أنه كلما كان الحيوان دقيق الصنع معقد التركيب كانت المدة اللازمة لنموه طويلة بالنسبة لمتوسط عمره .

ويمكننا أن نعتبر بأن الطفل يمر بأربعة أطوار :

١ — الطور الأول منذ وقت ظهوره إلى عالم الوجود إلى الثانية من عمره .

٢ — الطور الثاني منذ أول العام الثالث إلى السابعة من عمره

٣ — الطور الثالث من أوائل العام الثامن إلى آخر الحادي عشر .

٤ — والرابع منذ آخر الحادي عشر إلى آخر الثامن عشر .

الطور الأول :

يبلغ متوسط وزن الطفل عند الولادة نحو ثلاثة كيلوجرامات وهذا الوزن يبلغ ثلاثة أضعافه بعد نهاية العام الأول ، وأربعة أضعافه لما يكمل الطفل عامين من عمره ، ومن هنا نرى أن هذا الدور من عمر الطفل يمتاز بسرعة النمو ولا سيما من حيث الثقل ، ويأتي بعده الطور الرابع فيما يتعلق بسرعة النمو وخصوصاً من ناحية طول القامة ، أما الثاني والثالث فهما أقل أهمية من سابقيهما إذ يبطؤ فيهما النمو نسبياً .

طور المراهقة :

يبدأ لدى الطفل في نحو العام الثاني عشر ويستمر إلى السابع أو الثامن عشر من عمره ، ولدى الطفلة من الحادي عشر إلى السادس عشر ، ولكن هذه الحدود والمقاييس نسبية تختلف اختلافاً كبيراً بالنسبة للأجناس والأماكن ، وهي عندنا في الشرق أكثر بكوراً منها في الغرب . يسرع النمو في ابتداء المراهقة من حيث القامة والأطراف وخاصة السفلى منها ، وفي هذا الطور يضعف الطفل ويعتريه شيء من الهزال والكلال كما تقل مناعته وتختل توازن الجسم ، ومن هنا كان هذا الطور أخطر الأطوار إذ هو دور انقلاب جسماني وعقلي ونفساني مما يحتم على الوالدين والمربين ملاحظة الطفل والعناية به من حيث الغذاء والرياضة البدنية والنفسانية !

تظهر على الطفل عوارض وسمات الجنس تدريجياً — من رجولة أو أنوثة ويبدأ التناسق في أعضاء الجسم كما تبطؤ حركة النمو الجسمي من السابع عشر أو الثامن عشر إلى العشرين أو الواحد والعشرين على وجه التقريب وهو الحد الأعلى للنمو الجسمي .

تمركز اهتمام الطفل حول ذاته : « Egocentrisme »

هو بدء الحياة العاطفية والعقلية لدى الطفل وهو شعور غريزي وغير واع لا يميز الطفل في بدايته بين ذاته وبين ما يحيط به بل يخلط بينهما خلطاً . بيد أن هذا الخلط نفسه آت من ارتباط الطفل ببيئته وتكوينه وحدة معها ، كما أن هذا الشعور نفسه يقع تحت بند ظاهرة الأخضاع « Assimilation »

والحيازة إذ الطفل يحاول أن يجتذب كل شيء ويمتلكه وليس في ذلك من شذوذ ، ولكنها تخضع لقانون حيوى ، ثم يتطور ذلك الشعور ونقصد به تمركز اهتمام الطفل حول ذاته ويبدأ بالتفريق ما بين ذاته وغيرها مما يحيط بها ، كما تبدو عنده الظاهرة الثانية ونعني بها الخضوع و « التكييف » ال « Accomodation » وعند ظهورها فقط يمكن أن نقول بأن الطفل بدأ يلائم بيئته ملاءمة حقيقية .

تطور عقلية الطفل :

يقول « بيـــاجيه » « Piaget » في كتابه « الحكم والاستنباط لدى الأطفال » وكتابه « فهم الطفل للعالم » وكتابه « بدء الحياة العقلية عند الأطفال » بأن أهم ما يميز عقلية الطفل ثلاثة خواص هي : « الواقعية » « Réalisme » و « الحيوية » « Animisme » و « الاصطناعية » « Artificialisme » .

فالواقعيـــة لدى الأطفال ليست بواقعيـــة الكبار ، بل تختلف عنها اختلافاً كبيراً ، فهي نظرة مفرضة متحيزة لما يحيط بهم من أشـياء ، وكل ما يقع تحت حواسهم — وما يكون منها خاصاً لتلك الحواس فقط — ينظرون إليه بلغة عواطفهم وبما يشتهونه أن يكون ، كأنمـا كل شيء خلق لهم ومن أجلهم ، وبعبارة أخرى لا يفرقون بين ما لهم وما لغيرهم .

والحيوية استعملها لأول مرة بعض علماء « الانثروبولوجى » أي علم الإنسان ، إذ وصفوا بها عقلية بعض الشعوب الفطرية التي لم تتطور عقليتها بعد ، بل وقفت عند هذا الحد الصبياني ؛ والذين يعبدون الجماد من أصنام وتماثيل أو الشمس والقمر ، ويعتبرونها كائنات حية ذات حول وقوة .

كذلك الطفل في أول طفولته ينظر إلى بعض الأجسام من جماد كأنها كائنات حية ذات إرادة ، فالقمر ينظر إليه ويتبعه ، والسيارة تنقله من مـكان لآخر لأنها منقادة مطواعة تقدم له خدمات عن وعى وإرادة . وقد يصطدم رأسه بالحائط فيتألم من ذلك وتثور ثورته فينهال على الحائط ضرباً عقاباً له على ما اقترف من ذنب ، كما يغضب لأن لعبة من لعبه لم تطاوعه ولم تسر على هواه فينهال عليها ضرباً ويوقع بها العقاب ، وربما حطمها وهو يعتبرها كائنات حية ذات إرادة .

كذلك المعنويات لدى الأطفال ما هي إلا كائنات حية ، فقد يتخيل الله كرجل وقور ذى لحية بيضاء وسيما جسيما ، وليس فيما نذكر من غرابة أو شذوذ إذا علمنا بأن الإنسان الأول مر على هذا الطور ، ومازالت بعض الشعوب البدائية تقف عنده في تطورها العقلي . فقدماء الإغريق والمصريين كما ورد في الألياذة وما ارتسم على الجدران وأوراق البردى من نقوش ، كانوا يتصورون الآلهة في صورة بشرية مجسدة حية لها خواص البشر إلا أنها تختلف عنهم في بعض الأوجه كالسيطرة والسـلطان المطلق لتصريف أمور الكون وتنعم بنعمة الخلود والحياة السرمدية !

أما الاصطناعيـــة فهي تتلخص في اعتقاد الطفل أن كل ما يحيط به ويقع تحت حواســه ما هو إلا اصطناعى من خلق الإنسان ولاسيما والديه وهو شعور منشؤه الحياة الاتكالية وتمركز اهتمام الطفل حول ذاته . فالشمس صنعت لإنارته ودفئه ، والبقرة صنعت لـكى تدر عليه اللبن كما لو كان لسان حاله يقول « من بمدى الطرفان » .

العواطف عند الطفل :

هي وليدة الحاجة تتكون من مجموعة انفعالات عمياء غير واعية ، ومن هنا كان الاضطراب الذى يسودها ، كما أنها تنمو مع الطفل وتتهذب وتصقل ويتوجه كل منها في اتجاه معلوم ، كما تلتقى الانفعالات المتشابهة المتجانسة في « بؤرة » واحدة ، وفى هذه الحالة فقط يصح لنا تسميتها « بالعواطف » ، وهـذه العواطف الطفلية ترمى إلى غرضين مختلفين : أولهما عامل النمو والتطور وتتحكم فيه الأنانية والاستيلاء على كل شيء ، وعدم الاعتراف بما يخرج عن محيط « الذات » كما يمتاز بالخلط ما بين وغيرها مما يحيط بها . والثانى هو عامل ملاءمة البيئة ملاءمة حقيقية لتميزه عن العامل الأول حيث الملاءمة لا تكون إلا جزئية ، ومن ناحية واحدة هي ناحيه الحوز أو الإخضاع أو التمثيل ، وفى هذا الطور يحدث عند الطفل ما يشبه التضحية وإنكار الذات لحد ما ، إذ يبدأ التفريق ما بين ذاته وغيرها ، ويعترف بوجود ما حوله. ويسمي الاجتماعيون الطور الأول بطور الحيوانية «Animalité» والثانى بطور الإنسانية « Humanité » .

عاطفة الأنانية :

هى أثر من آثار تمركز الاهتمام حول الذات « Egocentrisme » لأن هذا الاهتمام لم يتطور أو يتبدل إلا جزئياً وهى عاطفة غريزية وضرورة « بيولوجية » لازمة لنمو الطفل وحفظ النوع، كما أن آثارها تبقى حتى عند الكبار، تتفاوت فى الدرجات ولكنها لا تزول نهائياً حتى فى نفوس أكثر الناس تضحية وإنكاراً للذات ، وما هذا الإنكار إلا نسبي ، وأن المبالغة فى إظهاره وتجسيمه ما هو إلا نوع من حب الظهور تمليه عاطفة دفينة هى الأنانية نفسها التى نحاول أن نخفيها ونظهر عكسها والمضاد لها من الصفات . ويزعم الكاتب الاجتماعى « دانتك » « Dántec » بأن الأنانية هى الترياق الشافى لذلك السم الاجتماعى ونقصد به التطفل والحياة الأتكالية التى تعتمد على الغير ، وقد ذهب هذا الكاتب إلى أبعد من ذلك فى زعمه ، وألف كتاباً فى هذا الصدد عنوانه « الأنانية هى الأساس المتين الذى يجب أن تقوم عليه الهيئة الاجتماعية » .

والأنانية تتطور عند الطفل وتأخذ صورة اجتماعية مبينة هى بدء الشعور بعزة النفس والكرامة ؛ يشعر الطفل فى هذه الفترة بحاجة ملحة إلى الإطراء والثناء من جانب الغير ، فتراه تواقاً لعرض ما يمتلك من أدوات اللعب وما يرتدى من ثياب فى شىء من الزهو والمباهاة ، ثم يقوم أمامك بما يحسن وما لا يحسن من ألعاب ، أو يلقى على مسمعك ما وسع اجتهاده وما وعت ذاكرته الضعيفة من دروس أو أغانى ، وهو فى كل ذلك حريص كل الحرص على أن ينال منك أكبر قسط من الثناء والتهانى ، كما يسيئه أن تمتدح أمامه طفلا آخر فيشعر بشىء من الغبن ويتألم لجرح كبريائه .

هذا والشعور بالكرامة نفسه يتطور إلى غيره من الصفات ، فهو إذا صادف تشجيعاً من الغير وسلم من عوادى التجريح سما إلى شىء من الاعتماد على النفس والشجاعة والكبرياء ، وهى صفات مصدرها الشعور بالقوة ؛ أما إذا حال حائل دون نموه الطبيعى بمعنى أن أصيب بالكبت والقهر من جانب القساة من الوالدين أو وجه توجيهاً خاطئاً بواسطة الجهلاء من المربين ، فإن هذا الشعور ينحرف ويشذ ويصبح الطفل خجولا أو جباناً كما تولد فى نفسه عاطفة الحسد والحقد على الغير وهى صفات منحدرة من الضعف وعدم الاعتداد بالنفس .

ظهور الشخصية واكتمالها عند الطفل :

يبدو هذا الطور عند الطفل فى نحو الثالث من عمره كشخصية قائمة بنفسها ويمر الطفل أثناءه بطورين متضادين :

الطور الأول سلبى : يكون فيه الطفل عصياً شديد العناد يعمل فى معظم الأحيان بعكس ما يلقى عليه من تعليمات على حد المثل « خالف تعرف » ويجد فى ذلك لذة نفسية تنتج عن شعوره بشخصية مستقلة عن الغير تعمل حسب ما يوافق هواها ، كما يبدأ التفريق بين ما له وما لغيره وهو شديد الضن والحرص على ما يمتلكه إذ تلك الممتلكات خاصة بشخصه يرى فيها مكملا لتلك الشخصية ومساعداً لبروزها .

والطور الثانى إيجابى : يحاول الطفل فيه جلب إنظار الغير بشتى الطرق ، ثم يبدأ بتقليد الغير لا من الصغار أو من هم فى مثل سنه ولكن بالكبار من مختلف الأوساط والهيئات تشبهاً بهم .

ثم يستجد فى حياة الطفل حادث له أهمية كبيرة من حيث الشخصية ، وذلك حين يبلغ السادسة من عمره وهى السن التى يغادر فيها « مدرسة الأم » المنزلية ويختلط بغيره من الأطفال فى المدارس الأولية ، إذ تضطره قوانينها للخضوع كما يشعر بشىء من تلاشى الشخصية وضعفها لحد ما ، ويقل تفكيره فى « الأنا » وتطغى ظاهرة الخضوع والمطاوعة « Accomodátiou » على ظاهرة الإخضاع « Assimilation » ويستمر الحال كذلك إلى أن يبلغ العاشرة من عمره ، وهى السن التى يحصل فيها على شىء من التوازن .

بيد أن هذا التوازن لا يدوم طويلا إذ يختل ويضطرب فى طور المراهقة الذى يبدأ فى نحو العام الثانى عشر إذ تتغلب ظاهرة الإخضاع مرة أخرى ويشعر المراهق بحاجة شديدة لإثبات شخصيته وفرضها على الغير مثل ما يحدث عنده وهو فى الثالثة من عمره ولكن بصورة أوضح ، وكذلك يمر على طورين :

الطور الأول سلبى : وهو طور العصيان والتمرد ، ولكنه تمرد أكثره على المنويات منه على الناس والأشياء فينتقد فيه آراء غيره ويتوق إلى الهدم ويخالف العرف كما يجنح إلى « المثالية »

٢ — الاتجاهات الحديثة وظهور الإسلام:

القانون والمجتمع (*)

للأستاذ ه. ا. ر. جب

من وجهة النظر الدينية الحديثة للمعارضين فى أضيق معانيها، نتجه نحو الغايات الاجتماعية للنهضة الإسلامية. لما كانت التقاليد والأوضاع الاجتماعية والقانون — فى الأصل — مظاهر للنظام الدينى فى الإسلام، فإن كل هذه المسائل ترتبط بالفقه الدينى إلى حد أكبر مما هى عليه فى حضارتنا الغربية. وعلى ذلك فأحدث التيارات الفكرية حول هذه المسائل، تفيض فى جدولين مختلفين يمكن تمييزهما — ولو نظريا على الأقل — : جدول الإصلاح، وجدول المعارضة. بيد أنه من الناحية العملية، يصعب أحياناً أن نقرر ما إذا كان مايتراءى لنا معارضاً، ليس حقاً مجهود خداع تجاه الإصلاح؛ وفكرة للدفاع عما يؤكده الكاتب من أنه رأى الإسلام الأصلى فى الشئون الاجتماعية.

وكثيراً ما يوصف الإسلام بأنه دين عام شامل؛ ولكن جميع الأفكار الدينية التى شكلت النظرة الخيالية والعقلية فى ذهن الإنسان، وقررت الأعمال الإرادية الإنسانية، تميل إلى أن تكون شاملة. فهى يجب أن تعمل على أن تسير قواعدها على مختلف نواحى النشاط الاجتماعى، لكى تسيطر على الحكومة. وعلى هذا الأساس فالدين اليهودى عام، وكذلك المسيحية. ولئن نسينا ذلك فإنما نفعل لأن المسيحية منذ فجر حياتها، كانت مضطرة إلى قبول السلطة والقانون الرومانى؛ ولأنها — عند ما كان يظهر أنها على قاب قوسين أو أدنى من النصر، فى كفاحها المرير مع نظام الإقطاع فى العصور الوسطى — كان عليها أن تتحمل صدمات عدوين جديدين هما: الإنسانية والعلم. والعلم نفسه آخذ فى الاقتراب من الانقلاب إلى فكرة التعميم، بعد أن حطم معارضة الدين، وذلك باتحاده مع الإنسانية وارتباطه بالتحرر الاقتصادى. وإذا حكمنا بطلائعها فى ألمانيا والروسيا، فإن التعميم العلمى يعمل على إيقاع العالم فى مأزق ضيق، شديد وصعب، بعيداً عن كل شىء، إلا ما جربه الجنس البشرى.

وبالمقارنة نجد أن التعميم (الشمول) فى العقيدة الدينية طريق سهل واضح. فمهما تكن عليه السلطات الدينية من غفلة، فإنها على الأقل تعرف قيمة الفرد وشخصيته، فتكفل له قدراً معقولا من الحرية. وفى الإسلام كان لهذه الحرية حد بعيد، تزيد بعداً بفقد التنظيم، وغياب القيادة، ولكنها — كما فى كل النظم العامة — تحاول أن تتحكم أوتمنع انتقال «الأفكار الخطرة» وانتشارها.

وإنه لجدير بنا أن ننظر نظرة فاحصة فى أثر مبدأ «الأفكار الخطرة» خطرة على من؟ على مستقبل الفرد؟ وإذا رأى الإنسان — بعد كل شىء — أن يخاطر فيما يجلب له العقوبة الأبدية فى جهنم، فإن هذا هو شأنه الخاص. أم خطرة على تنقية المعتقدات

(*) انظر ما نشرناه فى العدد ٧٩٠ من الرسالة الغراء. (المترجم)

كذلك تكثر عنده أحلام «اليقظة».

والطور الثانى إيجابى: يعتنى فيه المراهق بهندامه كما يكون شديد الغروز بحماسته الجسدية أو المعنوية والرغبة فى إظهارها للغير كلما وجد إلى ذلك سبيلا.

اكتمال الشخصية:

لا يمكن للشخصية أن تكتمل إلا إذا تم التوازن فى شكل متآزر متناسق بين ما ذكرنا من مظاهرات وانفعالات وصفات، ومن خطل الرأى أن نعتمد على الطبيعة كل الاعتماد لتهب لنا ذلك التوازن المنشود، بل يجب علينا أن نعينها على أداء وظيفتها بكل ما فى وسعنا وهى المسئولية الجسيمة التى تقع على عاتق الوالدين والمربين والمرشدين، فيجب عليهم — والحالة هذه — أن يكونوا أهلا للقيام بها على أحسن وجه.

وليس المجال هنا يتسع لسرد ما يجب اتباعه حتى ينشأ الطفل متزن الشخصية كاملها وبارزها، وقد عالج ذلك علماء التربية الحديثة والاجتماعيون بمقدرة تامة وليدة التجارب والعقل الذكى.

هذه نبذة مختصرة ولمحة خاطفة من سيكولوجية الطفل وبعده سوف يعقبه عود قريب والعود أحمد.

(باريس) فضل أبو بكر

بعثة فاروق الأول السودانية بفرنسا

وخلاص المجتمع الذى قد يكون فى خطر السوء أربما ؟ ولـكن هذا إجماع ضئيل فى مجتمع ينظر إلى « الاجماع » كما ينظر إلى التنظيم الطبيعى . ولـكن الاختلاف فى المعتقدات قد يؤدى إلى الانقسام والقتال ، وهـذا هو بيت القصيد . ولقد جرى العرف على أن المجتمع لا يمكن أن يكون ثابتاً غير مزعزع ، إلا إذا كانت الأخلاق شائعة فيه ؛ تنشرها عقيدة دينية صارمة ، ولن تصبح الأخلاق ثابتة راسخة إلا إذا كانت العقيدة الدينية فى حرز حريز من المؤثرات المادية للايمان وخالصة منها ، إذن فليست صيانة الأخلاق بأكثر أهمية من تثبيت المجتمع فحسب ، بل إنها الحالة الوحيدة التى يستطيع أن يتقدم فى ظلها المجتمع نحو الطريق المستقيم ؛ مثلا نحو مرتبة عالية من التكامل الاجتماعى ، وحياة أكثر ملاءمة للفرد .

أى أن نوع المجتمع — الذى تشيده الجماعة انفسها — يعتمد أساساً على معتقداته ، مثل طبيعة الـكون وغايته ، ومكانة النفس الإنسانية فيه . وهذا اعتقاد طبيعى يتكرر فى الـكنيسة أسبوعاً بعد أسبوع . ولـكن الإسلام هو الدين الوحيد الذى رمى على الدوام إلى تشييد مجتمع على هذا المبدأ ، وكانت المدة الأساسية لهـذا الغرض هي القانون . و« علم القانون » — على حد تعبير أحد المفسرين المسلمين المشهورين — « هو معرفة الحقوق والواجبات التى تمكن الإنسان من أن يبصر الأحوال الصحيحة فى هذه الحياة ، وأن يعد نفسة للعالم الآخر . »

وبعكس الحال فى القانون الذى ورثه العالم المسيحى عن روما ، نجـد القانون الإسلامى يرعى العلاقات بجميع أنواعها ، مع الله ومع البشر . ويشتمل على أمور كثيرة ، مثل تأدية الواجبات الدينية ومنح الصدقات (أداء الزكاة) ، وكذلك النظم المنزلية والمدنية والاقتصادية والسياسية . وهو بجوهره وطبيعته وغرضه متعلق تماماً بالمثل الدينية . والواقع أن الأحـكام الخلقية تعنى بالحقائق الظاهرية لفعل وقع أقل من عنايتها بالمواطف والغايات . وأن أى قانون وضعى ينبغى بوجه عام أن يهتم بالحقائق الخارجية . ولـكن الروح والقواعد النهائية واحدة فى كل ، فـكلاهما رفض الجدل الذى يرى صحة أفعال بعينها بسبب نتائجها الاجتماعيـة ، حتى ولو كانت نتائج مرغوباً فيهـا . وقد تبع ذلك أن القانون الإسلامى لم يكن معتبراً — مثل القانون الرومانى والحديث — أنه الخلاصة التدريجية لتجارب النـاس التاريخية . وإن أولى مظاهره هى ترتيب الأعمـال فى مستويات مطلقة للخير والشر ، وما تثبيت العقوبات لأحكام المستوى سوى مسألة ثانوية .

إن المستوى الصحيح للخير والشر ليس بالشيء الذى يمكن أن يتحكم فيه عقلياً . ولقد رأينا فى الفصل الأول (١) ، كيف أن العقلية الإسـلامية رفضت كل تلك النظريات العامة التى تخرج منها بمستويات مطلقة . وكانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن معرفتها بها هى الملانية ؛ إذ أن الله وحده هو الذى يعلم ما هو خير أو شر مطلق . ولذلك كان النظام القانونى فى الإسلام يبدأ مع القرآن ، ويتطور جنباً إلى جنب — وبنفس الطريقة — مع التنظيم النظرى . إن الأمثلة الموجودة فى القرآن أو التى استخرجت منه ، قد اكتملت بسنة النبي صلى الله عليه وسلم السائدة ، وأتمها الإجماع الثابت المجتمع . وإن المذاهب الأربعة : الحنفى والمالـكى والشافعى والحنبلى ، مذاهب قانونية ، أكثر منها دينية . ثم إن الجماعات التى تعنى بالنظريات ، قد شيدت نظمها على خطوط متشابهة .

ولسنا هنا فى حاجة إلى أن نتعمق كثيراً فى مبادىء هذه النظم القانونية وأساليبها ، فإن أهم ما يعنينا ، هو أن نحيط علماً بقيمة التأثير المتبادل بين القانون الإسلامى والمجتمع الإسلامى . فـكل تنظيم يفترض — بادىء بدء — أن هؤلاء الأشخاص الذين يعمل لخدمتهم يرغبون فى قبول سلطانه ، ويفهمونه على أنه محيط بهم — حتى ولو خاطروا من حين إلى آخر — وتعدوا حدوده . إذن فقبول القانون الإسلامى كان مترتباً على قبول دين الإسلام . وقد دخل فى دين الإسلام عدد كبير من الشعوب التى كان لـكل منها تراث اجتماعى شرعى . وباتخاذها الإسلام ديناً لها ، قبل أعضاء هذه المجتمعات مبدئياً سلطان القانون الإسلامى .

ومهما يكن من شىء فإن من الواضح أنه ليس من السهل القضاء على التراث الاجتماعى المتيق . وقد كان على زعماء الدين فى الإسلام — فى الواقع — أن يكافحوا فى سبيل توسيع مدى السلطة الأصلية للفقه الإسـلامى ، ونشره بين هؤلاء الناس .

---

(١) أسس الفكر الإسلامى .

تصحيح تصحيف وتحرير تحريف

للأستاذ أحمد يوسف نجاتي

كم للتصحيف والتحريف فى اللغة العربية من جنايات على هذه اللغة ! وكم لهما من آثار سيئة فى الأدب والتاريخ ! وكم أفسد كلاهما من عبارة ، وشوّه من معنى ، وأوقع فى لبس وإبهام ، وترك القارئ يخبط فى عشوة وظلام . اطلعت على الكتاب القيم الممتع (ظهر الإسلام) تأليف العلامة المحقق الأستاذ الجليل (أحمد أمين بك) فرأيت فى صفحة ١١٧ من الطبعة الثانية منه ما يأتى :

وهذا أبو على القالى البغدادى ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه وهى أعز شئ عنده فباع نسخته من كتاب الجمهرة ، وقد كان كلفاً بها ، فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد عليها بخط أبى على :

أنست بها عشرين حولا وبعتها ... فقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها ... ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل جفونى
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكوى الفؤاد حزين
(وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... ودائع من رب بهن ضنين)

وأقول إن هذه الحادثة إنما وقعت لأبى الحسن على بن أحمد ابن على الفالى . فكنيته أبو الحسن لا أبو على ، ونسبته الفالى (بالفاء الموحدة التى هى من الحروف المهموسة والشفوية ، لا بالقاف المثناة إحدى الحروف المجهورة التى مخرجها بين عكوة اللسان واللهاة فى أقصى الفم) وقد ساق هذه الحكاية على صحتها العلامة المؤرخ الثقة الأديب شمس الدين أحمد الشهير بابن خلكان فى كتابه الحجة المعروف باسم (وفيات الأعيان) ، قال رحمه الله تعالى فى ترجمة الشريف أبى القاسم المرتضى ما نصه :

وحكى الخطيب أبو زكرياء يحيى (١) بن على التبريزى اللغوى

(١) يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيبانى التبريزى المعروف بالخطيب أحد أئمة اللغة والأدب ولد سنة ٤٢١ وتوفى ببغداد سنة ٥٠٢

وقد لاقوا فى هذا الكفاح حظاً موفوراً من النجاح ؛ على الرغم من أنه لاتزال هناك جماعات — مثل البربر فى شمال غرب أفريقيا — غالبيتها مسلمة فى الشعور ، بيد أنها حافظت على قانونها التقليدى أمام كل مجهودات العلماء . وقد أفلح العلماء — إلى حد نجاحهم فى فرض القانون الإسلامى — فى توحيد المجتمع الإسلامى ؛ إذ أن القانون — كما سبق أن قررنا — كان المعول الذى رسخت به الأخلاق الاجتماعية .

على أنه يوجد هنا بعض اختلافات واضحة ينبغى بسطها . فعلى الرغم من أن القانون يشتمل نظرياً ، وحسب شرح العلماء على كل نوع ومظهر للعلاقات الاجتماعية ، إلا أنه كان هناك « مناطق كثيرة » فى حياة الجماعة مجهولة من الناحية العملية . وإن الأوضاع السياسية والحكومية ، وجزءاً كبيراً من سلطان العقوبة ، ومعظم التجارة ذات النطاق الواسع ، كل هذه قد وسمت مدى أثرها الفعلى — حتى ولو كان القائمون بأمرها مرتبطين — كما حدث أحياناً بأساسها بواسطة تقليد رسمى . وأنه لحق أنه فى هذه المناطق ، وبين الطبقات التى فيها — قد حدث الشعور بالمؤثرات الأوربية من بادئ الأمر ، وانتشر نفوذها . وهذه الحقيقة تذهب بعيداً فى تفسير ضعف المقاومة — فى المجتمعات الإسلامية ذات الدساتير — أمام إدخال نظم حكومية وتجارية ومدنية مؤسسة على نماذج أوربية . حتى أنه لم يبق ليومنا هذا إلا المملكة السعودية — وإلى حد ما — أفغانستان تسيران على الأوضاع القانونية الإسلامية القديمة . وقد يساعدنا هذا فى بيان السبب فى أن المجددين الأحرار (إذ أن مكانتهم قد أصبحت أرق من تلك الطبقات التى لم تكن سلطة القانون الدينى بينهم مطلقة) سبب وقوف هؤلاء المجددين مواقف غريبة — بل نقول حرجة ... ودنيوية — تجاه مسائل فى القانون الإسلامى ...

ترجمة

محمد محمد على

أن أبا الحسن على بن أحمد بن على بن سلك الفالى الأديب كانت له نسخة كتاب الجمهرة لابن (١) دريد فى غاية الجودة فدعته الحاجة إلى بيعها ، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور(٢) بستين ديناراً وتصفحها فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها أبى الحسن الفالى المذكور وهى :

أنست بها عشرين حولا وبعتها الخ

فأرجع النسخة إليه وترك له الدنانير رحمه الله تعالى .

وهذا الفالى منسوب إلى (فالة) بالفاء ، وهى بلدة بخوزستان قريبة من أيذج ، أقام بالبصرة مدة طويلة ، وسمع بها من أبى عمر ابن عبد الواحد الهاشمى (٣) وأبى الحسن بن النجار وشيوخ ذلك الوقت ، وقدم بغداد واستوطنها وحدث بها ؛ وأما جده سلك فهو بفتح السين المهملة وتشديد اللام وفتحها وبعدها كاف ، هكذا وجدته مقيداً ؛ ورأيت فى موضع آخر بكسر السين وسكون اللام والله أعلم .

وكانت وفاة أبى الحسن الفالى المذكور فى ذى القعدة سنة ٤٤٨ ليلة الجمعة ثامن الشهر المذكور ، ودفن فى مقبرة جامع المنصور ، وكان أديباً شاعراً ، روى عنه الخطيب أبو بكر صاحب تاريخ بغداد وأبو الحسن الطيورى وغيرهما رحمه الله تعالى . انتهى من تاريخ ابن خلكان .

(أقول) وقد ترجم له الخطيب البغدادى (٤) فى تاريخ بغداد بما يأتى : على بن أحمد بن على بن سلك أبو الحسن المؤدب المعروف بالفالى من بلدة تسمي فالة قريبة من أيذج (٥) ، أقام بالبصرة مدة طويلة وسمع بها من أبى عمر بن عبد الواحد الهاشمى وغيره ، وقدم بغداد فاستوطنها وحدث بها ، كتبت عنه شيئاً يسيراً وكان مؤدباً ثقة ، مات فى ليلة الجمعة الثامن من ذى القعدة سنة ٤٤٨ ودفن فى يوم الجمعة فى مقبرة جامع المنصور .

وفى الأنساب للسمعانى (١) ما يأتى :

(الفالى) بفتح الفاء وفى آخرها اللام ، هذه النسبة إلى فالة قال أبو بكر الخطيب أظنها من بلاد فارس قريبة من أيذج ، والمشهور بالنسبة إليها أبو الحسن على بن أحمد بن على بن سلك المؤدب الفالى ، سمع بالبصرة القاضى أباعمر القاسم بن جعفر الهاشمى وأبا الحسن على بن القاسم النجار وأبا عبد الله أحمد بن إسحق بن حزبان النهاوندى وغيرهم ، أقام ببغداد إلى آخر عمره ، وكان أديباً شاعراً فاضلا ، روى عنه أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب وأبو الحسن المبارك بن عبد الجبار الطيورى (٢) وغيرهما ذكره أبو بكر الخطيب فى التاريخ الخ) اهـ .

وذكر ترجمته أيضاً ياقوت فى كتابه معجم الأدباء ، قال : على بن أحمد بن سلك (الفالى) بالفاء وليس بأبى على القالى بالقاف ذلك آخر اسمه إسمعيل له ترجمة فى بابه ، وكنية هذا أبو الحسن ، يعرف بالمؤدب من أهل بلدة فالة ، موضع قريب من أيذج ، انتقل إلى البصرة فأقام بها مدة ، وقدم بغداد فاستوطنها ، وكان ثقة ، له معرفة بالأدب والشعر ، ومن شعره قوله :

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع فى كل مجلس
(لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

ومنه ما رواه عنه تلميذه الخطيب التبريزى :

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى اللغوى البصرى الأديب ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ وتوفى ببغداد سنة ٣٢١

(٢) أبو القاسم على بن الحسين بن موسى ، ولد سنة ٣٥٥ وتوفى ببغداد سنة ٤٣٦

(٣) هو القاسم بن جعفر بن عبد الواحد بن العباس بن عبد الواحد ابن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب من أهل البصرة وولى القضاء بها ، وقدم بغداد سنة ٣٧١ ، سنة ٣٧٢ ، وكان مولده سنة ٣٢٣ بالبصرة ، وتوفى بها سنة ٤١٤

(٤) ولد سنة ٣٩٢ وتوفى ببغداد فى أواخر سنة ٤٦٣

(٥) كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان ، وهى أجل مدن هذه = الكورة وسلطانها يقوم بنفسه وهى فى وسط الجبال يقع بها ثلج كثير يحمل إلى الأهواز والنواحى ومزارعهم على الأمطار .

(من معجم البلدان لياقوت)

---

(١) عبد الكريم بن محمد ، ولد بمدينة مرو سنة ٥٠٦ وتوفى بها سنة ٥٦٢

(٢) أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار بن أحمد بن قاسم الصيرفى البغدادى المحدث ، كان مكثراً صادقا صالحاً أميناً ديناً صيناً وقوراً ، توفى أواخر سنة ٥٠٠ (شذرات الذهب)

لــا تبدلت المنــازل أوجهاً غير الذين عهدت من علمائها
ورأيتهــا محفوفة بسوى الألى كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشــدت بيتاً سائراً متقدماً والعين قد شرقت بجارى مائها
(أما الخيــام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها)

ثم ساق حكاية بيعه كتاب الجمهرة نقلا عن الخطيب التبريزى أيضاً وفيه شيء يخالف ما فى ابن خلكان ، قال وحدَّث أبو زكرياء التبريزى قال : رأيت نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد باعها أبو الحسن الفالى بخمسة دنانير من القاضى أبى بكر بن بديل التبريزى وحملها إلى تبريز ، فنسخت أنا منها نسـخة فوجدت فى بعض المجلدات رقعة بخط الفالى فيها :

(أنست بها عشرين حولا ...) إلى آخر الأبيات .

فأريت القاضى أبا بكر الرقعـة والأبيات فتوجع وقال : لو رأيتها قبل هذا لرددتها عليه ، وكان الفالى قد مات ، اهـ

أقول لعل الفالى رحمـه الله باع هذه النسخة فى صفقة ثانية بعد أن أعادها إليه الشريف المرتضى . والبيت الأخير من أبياته تضمين لما قاله أعرابى باع لحمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام جملا بخمسين ديناراً ، فلما نقده ثمنـه جعل الأعرابى ينظر إلى الجمل ويقول :

(وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضنين)

فقال له حمزة : خذ جملك ، والدنانير لك ، فانصرف بجمله وبالدنانير . ومن شعر الفالى أيضاً فى شهر الصوم :

رمى رمضــان شملنا بالتفرق فيا ليته عنـــا تقضَّى لنلتقى
إذا مر أهل الأرض طراً قدومه فإن سرورى بانسلاخ الذى بقى

وفى معجم البلدان لياقوت ما يأتى :

(فالة) بزيادة هاء بعد الفاء والألف واللام بلدة قريبة من أيذج من بلاد خوزستان ، ينسب إليها أبو الحسن على بن أحمد بن على بن سلك الفالى المؤدب سمع بالبصرة من القاضى أبى عمرو أحمد بن إسحق ابن جربان وحدث بشيء يسير ، اهـ .

وقال فى تاج العروس شرح القاموس : (فالة) بلد بخوزستان قريبة من أيذج منها أبو الحسن على بن أحمد (بن سليمان) المؤدب روى عن أبى عمر القاسم بن جعـفر الهاشمى وغيره ، وروى عنه أبو بكر الخطيب ، وأبو جعفر الطيورى ، مات سنة ٤٤٨ اهـ .

وقد نقل هذه الحكاية صاحب كتاب الفلاكة والمفلوكين (١) موجزة وصحف فيها الفالى بالقالى ، ونص عبارته :

(القالى) أبو الحسن على بن أحمد بن على القالى كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان كلفاً بها فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجـد فيها أبياتاً بخط بائعها أبى الحسن القالى المذكور :

(أنست بها عشرين حولا وبعتها ...) إلى آخر الأبيـات كما فى كتاب (ظهر الإسلام وروايته) .

ونقل هذه الحـكاية أيضاً صاحب شذرات الذهب (٢) فى ترجـة الشريف المرتضى نقـلا عن ابن خلـكان فسلم من التصحيف ، غير أنه وقع فيه كذلك فى ذكره من توفوا سنة ٤٤٨ (وهى سنة وفاة أبى الحسن الفالى) فقال : وفيها أبو الحسن (الفالى نسـبة إلى فالى قلا من ديار بكر) على بن أحمد بن على المؤدب الثقة روى عن أبى عمر الهاشمى وطبقته اهـ . فصحف كما ترى (الفالى) إلى (القالى) وزاد من عنده تلك الزيادة الخاطئة التى بين القوسين .

أما أبو على القالى : فهو إسمعيل بن القاسم بن عيذون بن هرون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالىّ اللغوى صاحب كتاب الأمالى المشهور ، ولد سنة ٢٨٨ بمنازجرد من ديار بكر ودخل بغداد سنة ٣٠٥ وأقام بها إلى سنة ٣٢٨ ، ثم خرج منها قاصداً الأندلس ، فدخل مدينة قرطبة فى أواخر شهر شعبان سنة ٣٣٠ وتوفى بها سنة ٣٥٦ ، وإنما قيل له (القالى) لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قالى قلا فبقى عليه الاسم : وهى من أعمال ديار بكر — ومن كل ما تقدم يظهر أن صاحب الحادثة يكنى أبا الحسن لا أبا على ، وأنه الفالى لا القالى ، وأن وفاة أبى على القالى كانت قبل وفاة أبى الحسن الفالى باثنتين وتسعين سنة ، بل توفى القالى قبل مولد الفالى ، وأن مولد الشريف المرتضى ببغداد فى سنة ٣٥٥ يعنى قبل وفاة أبى على

(١) هو شهاب الدين أحمد بن على بن عبد الله المصرى الدلجى الشافعى المتوفى أواخر سنة ٨٣٨ هـ وقد طبع هذا الكتاب بمصر بمطبعة الشعب سنة ١٣٢٢ هـ ولكن لم يذكر فيه نسب المؤلف ولا سنة وفاته (بل اقتصر على قوله : أحمد بن على الدلجى)

(٢) هو أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى توفى سنة ١٠٨٩ هـ

القالى بقرطبة بسنة واحدة . وقد عرفت أنه رد إلى أبي الحسن القالى ثمن كتابه كما أعاد إليه كتابه الجمهرة متأثراً بأبياته وكان كلاهما مقيما ببغداد ، وتوفى الشريف بها قبل وفاة أبي الحسن القالى بها باثنتى عشرة سنة ، على أنه لم يعرف أن أبا على القالى بلغ من البؤس والفاقة إلى أن يبيع نسخة من كتابه الجمهرة ، تأليف أستاذه ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وكان ذا ثراء واسع ومال جم وإن كان رحمه الله متلافاً مفيداً مبيداً ، ولقد أفاد من بنى ميكال أموالا عظيمة ونال منهم ثروة طائلة رحمه الله وعفا عنه .

هذا ومن التحريف أو التصحيف أو خطأ الطبع فى ذلك الكتاب القيم (ظهر الإسلام) ما فى بيتى ابن المعتز صفحة ٢٦

أما ترى ملك بنى هاشم عاد عزيزاً بعـد ما ذلا
يا طالباً للملك كن مثـله تستوجب الملك وإلا فـلا

ولعل صواب القافية فى البيت الأول (بعد ما ذلا) لأن القصيدة من بحر السريع من عروضه الأولى المطوية المكسوفة التى ضربها مثلها على وزن فاعلن، وعلى ضبط (ذلا) يكون الضرب فى البيت وحده أصلم (على وزن فعلن) وهو ضرب آخر لهذه العروض لا يجمع بينهما .

وفى صفحة ٣٢ كتب البيت هكذا :

أيها الترك تلقون للدهـر سيوفاً لا تستبل الجريحا

وهو بهذا الشكل والضبط غير مستقيم الوزن ولا مفهوم المعنى ، والذى فى تاريخ المسعودى المنقول عنه :

أيها الترك سوف تلقون للدهـر سيوفاً لا تستبل الجريحا

وفى صفحة ٦٦ البيت :

فيبردها كأن لهـا وإن خفيت سـنا لهب

أظن الصواب (فيبرزها) كما يقتضيه السياق ويتطلبه المعنى

وفى صفحة ٨٠ السطر السابع : ليوسعنكم ضرباً وتشديداً وأظنها محرفة عن (تشريداً)

وفى صفحة ١٣٦ بيت للشريف الشريف الرضى فى الغزل فى سوداء :

أحبك يا لون الشباب لأنى رأيتكما فى العين والقلب توءما

صوابه : فأننى ، أو لأننى ، بزيادة نون الوقاية قبل ياء المتكلم ليستقيم الوزن .

وفى صفحة ١٤٠ فى السطر الثانى البيت :

ومنفق مشـفق إذا أنا أسرفت وبذرت مقتصـد

والصواب :

ومنفق مشفق إذا أنا أسـ ـرفت وبذرت فهو مقتصد

لأن القصيدة من بحر المنسرح ولا يستقيم الوزن إلا بذلك

والبيت سطر ٤ :

وصيرفى القريض وزان دنانـير المعانى الرقاق منتقـد

غير مستقيم الوزن ، وصوابه :

وصيرفى القريض وزان ديـنار المعانى الرقاق منتـقد

(فدينار) فى البيت مفرد لا جمع وآخر الشطر الأول الياء منه لا النون ، (والرقاق) فى البيت نعت للمعانى لا للدنانير .

وفى صفحة ١٥٥ بيت أبى العلاء المعرى :

وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والشباب

(أرى) أن (الشباب) مصحفة عن السباب .

يريد أن كلا من شعراء المديح الذين يكتسبون بالمدح وشعراء الهجاء الذين يتقيهم الناس فيفدون أعراضهم منهم بالمال إنما هم لصوص يستولون على أموال الناس بغير حق رغبة فى مديحهم أو رهبة من هجائهم .

وفى صفحة ١٨٤ البيت :

أنت إذا جدت ضاحك أبداً وهو إذا جاد باكى العين

لعل (الصواب دامع العين) برفع دامع خبر المبتدأ هو .

وفى صفحة ٢١٠ سطر ٤ البيت : هى قلت عن العزيز عداه

لعل صوابه : قد أقلت (أو هى أقلت) ضد كثرت فى عجز البيت .

وفى صفحة ٢٨٧ آخر الصفحة ، البيت من قصيدة البيرونى :

فلا زال للدنيا وللدين عامراً ولا زال فيها للغواة مواسيا

أرى أن الصواب (للعفاة) وهم طلاب المعروف جمع عاف فليس مما يمدح به المرء أن يكون مواسياً للغواة ، وإنما يواسى العافون وطالبو الجدوى .

ثم أقول بعد ذلك : أنه بمناسبة ذكر أبى على القالى اطلعت على صفحة ٧٤٢ من كتاب (سمط اللآلى) فى المجلد الآخر منه ويحتوى على شرح الجزء الثانى من أمالى أبى على القالى ، للوزير

أبي عبيد البكري المطبوع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م والذي نسخه وصححه وحقق ما فيه الأديب العالم المحقق الأستاذ عبد العزيز الميمني أستاذ اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند، فرأيت في أولها ما يأتي: (وهو من رجز لهميان بن قحافة مشروح هناك):

والبكرات اللقح الفوائجا ... بصفنة تزفي هدراً نابجا
ترى اللغاديد بها حوائجا

الصفنة: مثل العيبة، شبه بها شقشقة البعير، ويقال صفن فإذا ألحقت الهاء فتحت الصاد. (وتزفي): كما تزفي الريح شيئاً تسحفه، ويقال لأحد المدلين إذا استرخى (قد أسبج) يقول فهديره منصب مسترخ (واللغاديد) باطن أصول الأذنين (وحوائج) منتفخة، يريد أن نصف الشقشقة خارج من حلقه ونصفها باق فيه اهـ. وقد علق حضرة المصحح على قول البكري قد أسبج بقوله في الهامش (١) كذا في الأصلين، وقد أعياني أمر تصحيحه اهـ. أما أنا فأقول إن (أسبج) مصحف عن (استنتج) وإن (نابجا) في الرجز مصحف عن (ناتجا) قال في لسان العرب في مادة (نتج): ويقال لأحد المدلين إذا استرخى قد استنتج، قال هميان:

يظل يدعو نيبه الضباعجا ... بصفنة تزفي هدراً ناتجا
أي مسترخياً (والله أعلم) اهـ.

وقال في مادة ضمعج (الضمعج) الضخمة من النوق، وامرأة ضمعج قصيرة ضخمة، وكذلك البعير والفرس والأتان، قال هميان بن قحافة السعدي:

يظل يدعو نيبها الضماعجا ... والبكرات اللقح النوانجا

وأعاد هذا البيت في مادة (فثج): وناقة فاثج سمينة حائل أو هي الفتية اللاقح، ويروى (الفواسج بالسين، والفاسج من الإبل أيضاً اللاقح أو اللاقح مع سمن، أو هي الحائل السمينة فهي بمعنى الفاثج بالثاء المثلثة).

وينبغي أن أعترف بالفضل لحضرة العلامة أحمد أمين بك فإن كتابه (ظهر الإسلام) مرآة صافية ترى فيها بجلاء ووضوح الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري. ثم أذكر بهذه المناسبة أن خير كتاب قرأته يمثل الحياة الاجتماعية في العصر العباسي (وخاصة من الجهة السياسية والاقتصادية) هو كتاب (العصر العباسي) للأستاذ المحقق والمؤرخ الموفق المدقق الدكتور (عبد العزيز الدوري) العراقي أستاذ التاريخ الإسلامي بدار المعلمين العليا ومعهد الملكة عالية العالي بمدينة بغداد وقد طبع منه جزءان قيمان أحدهما في العصر العباسي الأول، والآخر في العصر العباسي الثاني، وإنه ليخدم التاريخ أجل خدمة إذا قدم له الجزء الثالث الذي يمثل بقية العصر العباسي، وقد رجع في كتابيه المفيدين إلى كثير من المراجع العربية وغير العربية من عدة لغات، ورجع من نفسه بعد ذلك إلى عقل ناضج كبير، وفكر عال صحيح، وذهن ثاقب جديد، ورأي قويم سديد. وكذلك أقول إن خير كتاب رأيته في أدب اللغة العربية في عصر صدر الإسلام هو كتاب الأستاذ الدكتور محمد مهدي البصير الذي سماه (عصر القرآن) تكلم فيه على الأدب العربي في صدر الإسلام وعصر بني أمية فأحسن وأجاد، وأمتع وأفاد، دل فيه على اطلاع واسع وعلم جم وأدب غزير، ورد الزائف البهرج وقبل الثمين المصفي، وكان له فيه رأي صائب وفكر قويم. ولنا في هذا الكتاب وغيره من مؤلفات الدكتور السيد محمد مهدي البصير عودة في مقالات موعدنا بها الأعداد المقبلة من الرسالة الغراء إن شاء الله تعالى.

أحمد يوسف نجاتي
أستاذ اللغة العربية والبلاغة والأدب بكلية دار العلوم وكلية اللغة العربية بمصر سابقاً — والأستاذ الآن بدار المعلمين العالية ومعهد الملكة عالية العالي بمدينة بغداد

غنـــاء الطيور
بين العلم والأدب
للأستاذ ضياء الدخيلي

فتن شعراء الطبيعة بغناء الطيور وسحروا بهديلها وزقزقتها في السحر وعند الأصيل في الأشجار المتشابكة وعلى الأنهار والسواقي حيث يمتزج خرير المياه بهديل الطيور وقد حبت الطبيعة البساتين موسيقاراً لا يكل ولا يعجز عن توقيع ألحانه المذبة، ولا يفتر عن ترديد أغانيه المشجية والمطربة أحياناً؛ وقد هام أغلب الشعراء بأغاريد الطيور فتركت صدى عميقاً في نفوسهم وخلدوا في مطارحها روائع ساحرة. وقد زاد ولوعهم بها ما جبلوا عليه من تقديس الجمال والافتتان بالتواقيع الموسيقية فكان كثير من الشعراء العباقرة يجنون إذا جمعتهم الرياض بالحمائم والطيور المغردة فيطربون لها ويهيمون إعجاباً بسحرها الأخاذ، فهجر بعضهم المدن لينعم بقرب الطيور في الرياض المؤتلقة.

من ذلك رأينا هذه الأشعار الكثيرة في دواوين شعراء العرب وكلها افتتان بغناء الطيور، ولم يقتصر عليهم ذلك الهيام بالطبيعة وجمالها الفاتن فقد حدث مؤرخو حياة الفيلسوف الإسلامي الكبير أبي نصر الفارابي أنه عند ما سافر من بغداد إلى دمشق كان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض؛ ويؤلف هناك كتبه وينتابه المشتغلون عليه، وقال في (وضات الجنات) يحكى أن الآلة التي تسمى القانون من وضعه وهو أول من ركبها هذا التركيب، وهذا يدلك على مدى افتتانه بالألحان الموسيقية، ولعل غناء الطيور أوحى له دروساً فياضة في الموسيقى.

وكما ترى فيما سنفرضه عليك أن هناك اختلافاً بين علماء الحيوان ودعاة نظرية التطور من دارون واتباعه، وبين شعراء العرب الذين نظموا في غناء الطيور وفسروه، كما ظهر لهم حسب أفكارهم إذ يرى علماء الحيوان أن الغناء هو من خصائص ذكور الطيور، وأن هذه تغرد وتغني لتجتلب الأناث بهديرها وتغريدها فالأغاريد أسلحة أدبية تصول بها الطيور في غمار معارك غرامية صخابة تمج بالتنافس بين ذكرانها، والتغالب لاقتناص زوجات يتمتعون بالقرب منها وينعمون بالاستئناس بجمالها الأنثوي.

وأتذكر أن الصحف المصرية نشرت (تصريحاً) للأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب يتحدى به الآنسة أم كلثوم قائلاً: إن الغناء في عالم الطبيعة من خصائص الذكور، ولا ريب أن الحق معه من وجهة التاريخ الطبيعي وحقائق علم الحيوان ولكن من الذي يفضل أن يسمع الغناء من رجل خشن على أن يتمتع به من فم فتاة رقيقة تفيض جمالا وفتنة، وعلى كل حال فإن علماء التاريخ الطبيعي يقررون أن الغناء ميزة للتفوق، وسلاح للغلبة واجتذاب للاناث جهز بهما ذكران الطيور، وفق نظام الكون المستهدف لإدامة الحياة، وبقاء النوع وتكثير النسل فهو من جملة الشهيات والمغريات المؤدية إلى تلك الغايات النبيلة.

وقد أخضعت نظرية التطور التي جاء بها العالم الإنجليزي دارون — غناء الطيور وهديلها لعامل الانتخاب الطبيعي. فقالوا إن خاصة الغناء الجميل التي تتحلى بها بعض الذكور من الطيور تتركها تتفوق في معارك الانتخابات التزاوجية لأجل الفوز بالأناث ويشجعها ذلك الفوز والانتصار على التناسل بكثرة. وهذا يؤدي إلى وفرة ذريتها التي تحمل خصائصها، ومن جملتها القدرة على أحداث الأصوات الجميلة الغنائية فتشيع هذه الميزة في الأجيال القادمة حسب قانون الوراثة. وإليك بعض كلمات علماء التطور.

قرأت في كتاب عن نظرية التطور تأليف العلامة الفردوالاس.

قال تحت عنوان الخصائص الجنسية المسببة بالانتخاب الطبيعي: (علاوة على تسلح الذكور بما يمدهم للنضال مع الذكور الآخرين توجد بعض الخصائص الجنسية المسببة بالانتخاب الطبيعي وذلك كالأصوات والروائح المختلفة الخاصة بالذكور التي تكون دعاء للأناث أشعاراً لهن بحضورهم، ومن الواضح أن هذه إضافات ذات قيمة في وسائط تمييز الجنسين، وزيادة على ذلك أنها

إشعار بحلول فصل التزاوج . ومن الواضح أن توليد وتفريق هذه الأصوات والروائع مما ضمن نطاق قدرة الانتخاب الطبيعي ، والتمييز بين الجنسين من فصائل الطيور ، ولإغراء ذكرانها للأناث ، وتشهيتها للسفاد .

وعند ما انتشرت أفراد فصائل الطيور بصورة واسعة على وجه الأرض أصبح هذا الدعاء فى غاية الأهمية لجعل التزاوج يقع بصورة مبكرة ويسرع به ما أمكن .

وهكذا قد أصبح وضوح وعلو وتميز شخصية غناء الطائر خاصة نافعة ، وبالنتيجة يتحقق الانتخاب الطبيعى (أى أن الطائر الذى توجد فيه هذه الخاصة النافعة يكثر نسله فتشيع هذه الميزة الصوتية فى الأجيال التالية وفق نظرية التطور والوراثة) وهذا هو الواقع خاصة بالنسبة لطائر الوقوق Cukoo ومع كل الطيور التى تعيش منفردة .

ولا شك أن صنيع الغناء عمل مبهج وجالب للسرور ، وربما استخدمه الطير كمنفذ للفائض الزائد من الطاقة العصبية والتهيج النفسى ، على حد ما يقوم به الإنسان من الرقص والغناء والألعاب الرياضية المسلية . وهذا التعليل لغناء الطيور يرى أن رياضة القوة الصوتية مكملة لتطور الريش الثانوى الذى ليس له أهمية أساسية فى الطيران ، ومتممة لزخارف الزينة والتجمل فى الطيور.

ويلاحظ المؤلف (Alfred Rüssel wallace الفرد روسل والاس) أن كل طيورهم البديعة الغناء بسيطة التلوين ، وليس لها عرف ولا يوجد فى رقابها أو ذيولها من ريش التباهى ، والظهور بمظهر فاتن جذاب ، فى حين أن الطيور المزخرفة ذات الجمال الزاهى فى المناطق الاستوائية ليس لها المقدرة على الغناء ، وتلك التى تصرف طاقة كبرى لتتبرج وتزهى بالريش الجميل تطورت أصواتها تطوراً طفيفاً لا يذكر إذا قسناها بالطيور الأخرى . وخذ مثلاً لذلك الديك الرومى ، والطاووس ، والطائر الطنان ، وطيور الجنة وهذه فصيلة من طيور غينيا الجديدة وما يجاورها من الجزائر .

وتشتهر طيور الجنة بجمال ريشها وبهاء ألوانها ، ولا يمتاز ببهاء اللون وحسن الريش إلا الذكور ، وريش الذكران على حسنه أملس ناعم حريرى فيه براقة المعادن الصافية والخلاصة أن أغاريد الطيور وأغانيها حسب الظاهر مذكرات وإشارات ورسائل غرامية مختصرة لإشعار الأنثى بوجود الذكر ولدعوتها إلى التزاوج ، وهذه القابلية للغناء تفيد الفصيلة لأنها ذات علاقة بأهم وأجل وظيفة حيوية ، وهى حفظ النوع بالتناسل) .

وقال العالم الطبيعى دارون فى كتابه أصل الأنواع إن المنافسة بين الطيور على امتلاك الأناث أقل قسوة منها بين الحيوانات التى تعيش على الأرض ؛ وكل من له إلمام بالموضوع على اعتقاد تام أن هذا التقاتل لا يبلغ منتهى القسوة والشدة إلا بين الأنواع التى تجتذب ذكورها الأناث بحسن أصواتها الغنائية .

وذكر أن بعض الطيور التى يسكن جزائر (جيانا) وطيور الجنة وغيرها من صنوف الطير قد تجتمع وتتقاتل قتالا عنيفاً ثم تخرج الذكور الفائزة فى المعركة وتنشر ريشها البهى الزاهى لتجتذب إليها الأناث ، ومن ثم تأخذ فى التضاحك بشكل عجيب والأناث على كثب ترمقها ثم تنتخب ما كان أشد جاذبية إليها .

وقال باحث آخر إن جمال ذكور الطيور بأصواتها أو ريشها يلعب دوراً عظيما فى الحب الفسلى ، ولعل للطيور أعظم نصيب من الجمال ، فلذلك قلما تتنازع ذكورها بالقتال ، وإنما تعتمد فى الأكثر على فتنة الأناث بجمال ريشها وألوانه الجميلة ، وبعضها يعتمد على الرقص على الأرض أو فى الهواء وبعضها يعتمد على الزقزقة والهديل .

وهكذا تمد الطيور على أعظم جانب من الجمال البصرى والصوتى ولها ذوق عقلى فى الجمال كالإنسان تقريباً ، ولذلك يطرب الإنسان بزقزقة العصافير وهديل الطيور ، ولكن الطيور المغنية قد تلتجىء إلى العراك للفوز بالأناث .

فقد روى العلامة دارون أن نوعاً من الطيور فى الولايات المتحدة يجتمع نحو عشرين من ذكوره فى بقعة حيث تتنافس بالزقزقة ، وحالما تميل الأنثى لذكر تقتتل الذكور ، والأضعف يحيد عن القتال ، حتى إذا لم يبق إلا واحد ذهبت الأنثى معه . وقد بلغت مسألة الانتخاب عند الطيور حداً قصيا حتى أن بعضها

لا يتزاوج لأن الأناث لم يرقها ذكر من الذكور التي تنافست في إغرائها وأثارة عواطفها .

وروى (جوير) أن منازلة الطيور تستغرق وقتاً طويلا وقد ينقضي الفصل كله ولا تنجح الذكور والأناث في إثارة الحب فلا تتزاوج .

ولبعض الطيور حب مبرح بحيث إذا فقد إلفه حزن عليه طويلا ذكر دارون أن ذكر الببغاء وأنثاه يتعاشقان ويتلازمان طويلا حتى إذا مات أحدهما أسف الآخر عليه أسفاً شديداً ، وإذا قنص أحدهما بقي الآخر مدة طويلة ينادي نداء محزناً .

وللحمام أيضاً ألفة قوية كألفة البشر ، فقد لوحظ أن زوجي حمام عادا إلى عشرتهما بعد فراق تسعة أشهر متذكراً كل منهما الآخر . وكثير من الطيور يختار إناثه الذكر الذي تحبه دون سائر الذكور من غير أن تنازعها الذكور بقتال .

فقد روى (أودوبون) الذي قضى ردحاً من الزمن في أحراج الولايات المتحدة يدرس طبائع الطيور أن الأنثى لا تقبل على أي ذكر يعرض لها بل تتشدد جداً في اختيار عريسها وتراقب منازلة كل ذكر حتى يروقها واحد فتذهب معه . وكل ذلك يدلك على أن للطيور ذوقاً حاداً في تمييز الجمال والإعجاب والانفعال به كما أن لها قوة غريبة في التفنن بالمنازلة .

وهذا الذوق العجيب الذي يضاهي ذوق الإنسان هو علة ارتقاء الجمال الصوتي والنظري في الطيور كما علله دارون بسنة الانتخاب الطبيعي والتناسلي إذ الذكر الأجمل شكلا أو صوتاً ينجح في المزاوجة ، والأقل جمالاً يفشل ، ذاك يكون له نسل وهذا ينقطع نسله ، وبفعل ناموس الوراثة تتجه السلالة إلى إنتاج الأجمل .

قال دارون ولا يشك أحد ممن لاحظوا أنواع الطير حال أسرها واعتزالها مركزها الطبيعي المطلق فإنها تفضل بعض الأفراد على بعض ، فإن السير (ر . هيرون) قد وصف كيف أن طاووساً مزرقشاً قد اجتذب إليه كل الأناث وتفرد بها .

وإنه وإن كان لا يتسنى لي الإفاضة في هذا الموضوع فإني على يقين بأن الإنسان إذا استطاع أن يحسن في وقت قصير أنواع (البنتام) وهو ضرب من الدجاج الداجن — بحيث يجعلها بديعة الألوان رشيقة الصور فلست أرى مانعاً يحول دون القول بأن أناثه إذا انتخبت خلال آلاف من الأجيال أشجى الذكور صوتاً وأحسنها شكلا وفاق ما يلوح منها من معاني الجمال فقد يحتمل أن يحدث فيها تأثيرات من التغاير ذات بال .

غير أن دائرة المعارف البريطانية تجعل من أسباب الغناء رغبة الطائر أن يشعر باقي الطيور بوجوده في المنطقة التي ينفرد فيها وبذلك لا يقرب إليه ما يزاحمه على ما فيها من المواد الغذائية (راجع تفصيل ذلك في مادة Bird) .

وهذا حديث يطول ، إنما الذي وددت أن أقرره رأي علماء الحيوان في تعليل تغريد الطيور بأنه لأغراء الأناث وجلبها إلى السفاد ودعوتها إليه وأنه إعلان بمجيء فصل التزاوج وإن الأغاريد مغازلات غرامية ، وإذا كانت أغاني الطيور أحابيل لصيد الأناث ووسائل إغراء وإقناع في غمار معارك غرامية كما بين دارون ووالاس وإخوانهما من علماء الحيوان وأفادا أن هديل الطيور شباك صيد ينصبها الهياج الجنسي فلا تلم عشاق الشعراء إذا تهيجوا وأصباهم الحمام بهديله لأنه ضرب على وتر الحساس ونطق بلغة قلوبهم الولهى فأثارهم وهيج إحساسهم وإن لم يعرفوا كيف تسلطت تلك الأغاريد عليهم .

قال بعض الأعراب أنشده اسحق الموصلي .

ألا قاتل الله الحمامة غدوة(1) على الغصن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصوت أعجمي فهيجت من الوجد(2) ما كانت ضلوعي أجنت(3)
فلو قطرت(4) عين امرىء من صبابة دماً قطرت عيني دماً فألمت(5)
فما سكتت حتى أويت لصوتها وقلت ترى هذي الحمامة جنت ؟
ولي زفرات لو يدمن قتلنني بشوق إلى نأى التي قد تولت

(البقية في العدد القادم)

ضياء الدخيلي

(1) الغدوة هي بين الفجر وطلوع الشمس .
(2) المحبة الشديدة .
(3) أخفت (4) قطر الماء، سال وجرى قطرة قطرة .
(5) ربما تستعمل ألم بمعنى كاد نحو ألم يفعل كذا أي كاد .

طرائف من العصر المملوكي :

العلاقات الاخوانية
وصلتها بالأدب
للأستاذ محمود رزق سليم

نزعة الأدب في نفس الأديب المطبوع ، أشبه شيء بالغريزة الإنسانية . فهي قوة كامنة فيها ، تتحرك من تلقاء نفسها ، وتقوم بعملها الحيوي في حياة الأديب . فتقرأ وتستقرىء وتطلع وتتصفح ، وتختزن وتقرن ، وتمزج ثم تلد وتصور وتلون ، وتهب لأجنتها ما تشاء لها مقدرتها من أسباب القوة والبقاء . ثم تدفع بنتاجها إلى اللسان فينفثه سحراً حلالا ، أو إلى القلم فيبثه زهراً وضيئاً ، ترى من خلاله حياة نابضة ، وروحاً متحركة ، تلعب دورها ، وتؤثر أثرها .

والغريزة بحاجة إلى التربية والتهذيب والتثقيف ، حتى توجه إلى خير السبل لإسعاد المرء وإسعاد مجتمعه . ولا يبعد عنها في ذلك ، نزعة الأدب ، فهي بحاجة إلى أن تتعهدها يد التربية والتهذيب والتثقيف ، وإلى أن يسلك بها مسالك ثقافية خاصة ، حتى تفره وتحذق ، ويتسع أمامها المدى ويرحب أفقها ، ويلطف حسها ويدق إدراكها . وكلما كان الأديب أكثر من غيره ثقافة ، اتسع رحابه ، وسما إنجابه ، وأشرق وأمتع فنه .

غير أن النزعة الأدبية ، مهما كانت طاغية باغية ، ثائرة فائرة ، يقظة ساهرة ، قد يصيبها العثور ويغشيها الفتور ، فيخبو زندها ، ويكبو جوادها ، ويتطامن إنتاجها ، وتقل الروعة في فنها . حتى تتاح لها منشطات تنهض راكدها ، وتنبه راقدها . وتثير فيها من جديد مظاهر الحياة الصحيحة والحركة . ولعل هذه الناحية أقوى وجوه الشبه بينها وبين الغريزة ، إذ لولا مايعرض للغريزة من مثيرات ودوافع ، لماتت ألواناً من الكبت ، قد تفضي بها إلى الموت .

وتتشبث النزعة الأدبية — ككل كائن حي — بأسباب بقائها . وقد درجت الطبيعة على أن تبذل لها بين الحين والحين ، من أسباب البقاء ما يذكي فيها عوامل الأمل والرجاء . وحينذاك تندفع في طريقها جادة نشيطة مجاهدة مجالدة ، حتى تؤدي رسالتها في الحياة .

وقد درجنا ، ونحن ندرس تاريخ الأدب العربي ، على أن نسمع بين الآن والآن ، بضروب من التشجيع — أوقل بألوان من أسباب البقاء — تتاح للنزعات الأدبية ؛ فمن عطية أمير ، إلى منحة وزير ، إلى ثقافة حافلة إلى آذان صاغية وقلوب واعية ، إلى حوافز من صداقات ومودات ، إلى غير ذلك .

والعلاقات الإنسانية كانت وما تزال ، ذات أثر بعيد المدى ، في حياة النزعات الأدبية . فالأديب لا يعيش في الدنيا وحيداً . حتى ولو آثر العزلة ، فجميع ما حوله ومن حوله ، ذو أثر فعال في حياته واتجاهاته ، وعواطفه وانفعالاته . ومن أوثق هذه العلاقات ، العلاقات الإخوانية .

ونعني بالعلاقات الإخوانية ، صلات الود ووشائج الصداقة بين الأنداد والنظراء . وهي من العوامل الدائمة المشتركة بين كل العصور الأدبية ، ومن مسعرات نزعاتها ، وحافزات روحها ، وموجهاتها . وهي بتأثيرها في الناحية الأدبية ، بحاجة إلى دراسة مستقلة خاصة مستفيضة ، تتلمسها في كل عصورها ، وتبرز آثارها في كل عصر منها ، وتوازن بين آثارها في عصر وعصر ، وتوازن بين آثارها وآثار غيرها من العوامل .

ولعل العلاقات الإخوانية أقوى أثراً في النزعات الأدبية ، وأبعد توجيهاً لها في العصر المملوكي ، بالقياس إلى غيرها من عوامل النهوض الأدبي فيه . ففي العصر المذكور قلت عوامل التشجيع وأسباب الحفز الأدبي ، في جملتها ، بالنسبة إلى ما سبقه من العصور . واتجه الكثير منها إلى الحركة العلمية البحتة ، يجذب بضبعها ومد في بقائها ، وهيأ لها أسباب الحياة والنمو . أما الحركة الأدبية فقد نالها منها صبابة يسيرة ، وثمالة متوارية ، لا تبعث نشوة ولا تهز عطفاً . لقد صوحت عوامل التشجيع الأدبي ، ويبس عودها وذبل زهرها ، وأصبحت لا تبهر عيناً . فلا نوق هرم ، أو عصافير بني جفنة ، ولا دنانير هشام أو بدر الرشيد ، ولا مجالس المأمون أو محافل المتوكل ، ولا أريحية بني حمدان أو ذهب العبيديين ، بعقرية جنان شاعر ، أو بجرية لسان ناثر في هذا العصر .

وككل كائن حي ، أخذت النزعات الأدبية فيه ، تتلمس لنفسها أسباباً أخرى من أسباب البقاء . فصادفتها العلاقات

الإخوانية ، فاتخذت منها إلى الحياة سبباً ، وإلى البقاء وسيلة . وتشبثت بها أو اصطنعتها أداة لمعالجة عملها وإبراز فنها . والفن هنا قد تنقصه الدقة ويخطئه العمق ، ولكن لا تنقصه الصراحة ولا يجافيه الصدق . إذ هو نتيجة علاقات قلبية ، ورجع مودات نفسية ، لا حاجة بها إلى الزيف والتلفيق .

وقد ظلت الكثيرين من أدباء العصر المملوكي رايات المودة والصحبة الحسنة ، فعاشوا إخواناً متحابين في الأدب ، يسمد أحدهم الآخر كما يسمد الغريب الغريب . وقد نوهنا في بعض مقالاتنا السابقة بشيء من هذه العلاقات ، وآثارها ، كعلاقات السبعة الشهب . وصحبة الجزار والوراق .

وقد روى صاحب فوات الوفيات أن الأديب كمال الدين بن العديم كان إذا قدم مصر يلازمه أبو الحسين الجزار . حتى كانت هذه الملازمة مثاراً لتندر بعض أهل العصر عليهما ، فقال ، وفيه تورية :

يا ابن العديم عدمت كل فضيلة ... وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها ... نفس تلذ بصحبة الجزار

وبهذه الصحبة فتح الأدباء مغالق أبواب أدبية واسعة ، ما بين منثور ومنظوم . وأكثر الشعراء من التهاني والتمازي ، والتشوق والحنين ، والمعاتبة ، وتقارضوا الثناء ، وأفاضوا في المعارضات والمطارحات والمساءلات ، وجدوا في الماجنة والمفاكهة واللاغزة والمحاجاة ، ونهضوا للاجازة والاستدعاء ، إلى غير ذلك .

والحق أن الشعر — بخاصة — قد ظنت به حينذاك الظنون ، وأرجف الناس من حوله . حتى إن بعض أهله أوجس خيفة ، فنعوا عليه ، وندبوا أنفسهم ، وشكوا كساده ، وفضلوا عليه الحرف الدنيا . وهذا أبو الحسين الجزار المصري الشاعر ، يقول — وقد هجر الشعر والتكسب به ، واحترف الجزارة :

كيف لا أشكر الجزارة ما عـ ... ـشت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ ... ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ولعل أبلغ رد عليه ، وهو رد يؤيدنا في أن الشعر ربح في هذا العصر حياة فيها صراحة وصدق ، قول ابن الوردي :

قالوا لقد كسد القريض فقلت بل ... عاشت ضراغمه ومات ضباعه
الآن طاب سماعه وتقطعت ... أطماعه وتمززت صناعه

نقول إن العلاقات الإخوانية كانت خير معين للشعراء على إبراز شاعريتهم دون زيف ، وإظهار فنهم دون تلفيق . فكان صدى لنفوسهم ومرآة لحوادثهم . وقد حدث صاحب مسالك الأبصار عن أبي الحسين الجزار المصري السابق ذكره ، فقال :

« حكى أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار ، خرجا في عهد صباهما ، والشباب أعقد حباهما ، يريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامراً ، يتمنى منه اللقاء ، ويجتمع فيه الغصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر المنير . ويطرب كأنما زمره مما أوتي آل داود من المزامير . فلفتاه إليهما لأمر . وظنا أنه ستليه لهما الخمر . فأتيا به دير شمران وصعدا إليه . فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قمره ولا شيء أحسن منه في ذلك السواد . فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب . وأيقنا ببلوغ المآرب . فلما حميت فيهما سورة الحميا . وظن كل منهما أنه قد حصل له فراشه وتهيا . فطن الزامر والراهب لمرادهما ، فتركاهما ومضيا قبل التمام ، وتركاهما وكل واحد منهما يشكو ضجيعاً لا ينام . فقال السراج :

في خفية لم يقع الطائر ... لا راهب الدير ولا الزامر

فقال أبو الحسين الجزار :

فسعدنا ليس له أول ... ونحسنا ليس له آخر

فقال السراج :

فالقلب في إثرهما هائم

فقال الجزار مكملا :

والقلب من أجلها حائر »

وفي هذه القصة ما يصور حياة هذين الماجنين ، وهما مثل لغيرهما أو لكثير غيرهما من أدباء العصر .

ويقرب من هذه الحادثة مارواه صاحب فوات الوفيات قال :

« حكى أن نور الدين علي بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب ، مر مع جماعة من الأدباء بالديار المصرية ، ومنهم أبو الحسين الجزار ، فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، وقد هب الهواء فكشف ثيابه عنه . فقال أبو الحسين الجزار ، قفوا لينظم كل واحد منا في هذا شيئاً . فما لبثوا حتى قال نور الدين علي بن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها ... تبدي خفايا الردف والأعكان

وتميل بالأغصان عند هبوبها ... حتى تقبل أوجه الغدران
فلذاك المشـــاق يتخذونها ... رسلا إلى الأحباب والأوطان

فقال السراج الوراق :

ما أعلم أن أحداً منا يأتي بمثل هذا . سيروا بنا . »

نقول : وهذه مطارحة لم تتم أدوارها ، ومباراة لم تبلغ مداها

وقد نظم الصاحب فخر الدين بن مكانس قصيدة طريفة فكاهية ، داعب بها صديقه الأديب الشيخ بدر الدين البشتكي ، ووصفه فيها يوم « أنس الهايل » ، وكان الشيخ بدر الدين في اليوم المذكور قد وضع نفسه موضع الثور من الساقية ودار بها ، فقال ابن مكانس :

دورة البدر في سـواقي الهايل ... تركت أدمع العيون هوامل
آه من للرياض ثور أديب ... مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سمياً على بني عجل في الجو ... دوأغنى عن الولى الهاطل

وقد مزج ابن مكانس في أبياته بين ألفاظ الرياض والري والماء ، وألفاظ الأدب والشعر مزجاً لطيفاً ، واستعار من إحداها للأخرى ، ووصف الرياض خلال ذلك ، وما فيها من أزهار وأغصان ، مع توريات جميلة ، وتلميحات بارعة ، تناسب الموضوع

فمن أبياته يخاطب صديقه :

يا سميداً أرى من النظم والنثـ ... ـر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض ياشيخ بالدو ... ر فها غصنها من السكر مائل

وقوله :

وغـداً بالظلال كل أديب ... في هجير الرمضا بفضلك قائل
وبروحي عيون نرجس روض ... تفتح العين بالندى وتنازل
أنت شنفتها بشـعرك زهراً ... وبعثت المياه فيها خلاخل

وقوله :

أنت لو لم تكن بحار علوم ... ماجرت في الرياض منك جداول
أنت عندي أجل قدراً من الثو ... ر وقد درت للوجود الحامل
وغدا الفن بين لفظك والرو ... ض على الحالتين عندك باقل

ومن الإخوانيات ما تبادله صفي الدين الحلي ، وجمال الدين بن نباتة ، من شعر تعاتبا فيه وتقارضا الثناء ، فلقد أرسل صفي الدين إلى صديقه قصيدة في هذا المعنى ، قال في مطلعها :

من لصب أدنى البعاد وفاته ... إذ عداه وصل الحبيب وفاته
فاته من لقا الأحبة عيش ... كان يخشى قبل الوفاة فواته
كان ثبتاً قبل التفرق لـكن ... زعزعت روعة الفراق ثباته

ومنها يقول :

كنت مستنصراً بأسياف صـبري ... فنبت بعـد فرقة ابن نباتة
فاضل ألف الفصاحة والعـ ... ـلم وضمت آراؤه أشـتاته
رب شعر لم يتبع ما روى النا ... وون لكن بالفضل يهدي غواته الخ

وقد أجابه ابن نباتة بقصيدة طلية في المعنى ، ومن البحر والروي ، قال في مطلعها شاكياً متغزلا في رقة :

ما لظبي الحمى إليـه التفاته ... بعـد ما كدر المشيب حياته
لهج بالهـوى وإن نفرت أيـ ... ـدي الليالي غزاله ومهاته
كلما قيـل قد سلا عن فتـاة ... عاده الحب فاستجد فتـاته

ومنها :

بأبي فاتر اللحـاظ غرير ... رام تشبيهه الغزال ففـاته
صائل الحسن إن رنا وتثنى ... سـل أسيافه وهز قناته

ومنها يخاطبه :

يا مفيـد الورى لآلئ بحر ... يعرف الذوق عـذبه وفراته
وصل العبد من قريضك بر ... سر أحبابه وساء عداته .. الخ

وعلى ذكر ابن نباتة نقول إنه كان قد وقع بينه وبين صديقه صلاح الدين الصفدي جفاء ، ولعل ذلك بسبب سرقات الصفدي الشعرية من ابن نباتة ، والتي جمعها ابن نباتة في كتابه « خبز الشعير » . فتعاتبا عتاباً شعرياً قاسياً ، وقد ضمن كل منهما قصيدته إعجازاً من معلقة امرئ القيس ، وسلكاها في نظمها مع توافق في المعاني ، حتى لكأنها أصيلة فيه .

قال الصفدي :

أفي كل يوم منك عتب يسوءني ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
وترمي على طول المدى متجنياً ... بسهميك في أعشار قلب مقتل
فأمسي بليل طال جنح ظلامه ... علي بأنواع الهموم ليبتلي . الخ

فقال ابن نباتة متقبلا صافحاً :

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
بروحي ألفاظ تعرض عتبها ... تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت وداً كان كالرسم عافياً ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعفى رياح العذر منك رسومه ... لما نسجتها من جنوب وشمأل الخ

وقد بعث الصفدى بعد حين إلى ابن نباتة يستجيزه رواية آثاره الأدبية ، فأجازه ابن نباتة وكتب له « إجازة » بعبارة أدبية هي نموذج لنثر هذا العصر .

ومن يقرأ كتاب « ألحان السواجع » للصفدى ، يجد فيه نماذج عدة للاخوانيات الشعرية فى عصره . ودواوين الشعراء فيه ملأى بهذا الضرب الشعرى .

ومما يذكر أن الصحبة كانت قد عقدت أواصرها بين ناصر الدين بن البارزى أحد كتاب العصر البارزين ، وابن حجة الحموى الشاعر الكاتب الناقد . وبوحى من ابن البارزى نظم ابن حجة بديعيته فى مدح الرسول عليه السلام . وأبرز فى أبياتها ألواناً عدة من البديع ، وعارض بهما بديعيتي عز الدين الموصلي والصفى الحلى . وكان كلما نظم بيتاً قرأه على صديقه ابن البارزى حتى يصير صالحاً . ولما انتهى ابن حجة من نظم بديعيته ، شرحها ووازن بينها وبين بديعيتي الموصلي والحلى ، دارساً أنواع البديع مستشهداً عليها بكلام المتقدمين من نثر ونظم ، موازناً بينها أيضاً ، مبيناً مذهب البعض فى البديع ، متكلما عن شعراء عصره وأدبائه ومذاهبهم فيه أيضاً ، وهكذا نرى أن ابن حجة قد ألف كتاباً ممتعاً فيه علم وأدب وتاريخ ونقد ، وهو « خزانة الأدب » .

وبعد فلعلنا بهذا الحديث الموجز ، وبهذه الحوادث المقتضبة ألممنا إلى الدور الهام الذى أدته الملاقات الإخوانية على مسرح الأدب فى العصر المملوكى .

(الاسكندرية) محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

يا بنت وايزمان . . .

للأستاذ ابراهيم الوائلي

ما ذا وراءك يا رمال البيد   أعزيف جن أم زئير أسود ؟
دوّى الفضاء فأى حشد زاحف   غمر اليفاع ، وأى خفق بنود !
دنيا من التاريخ ريع جلالها   فتنفضت عن عدة وعـــديد
وتحفزت فإذا السرايا طلع   تطوى الجبال ليومها المشهود
هبت فأية أمـــة لم يثنها   ما كان من عسف ومن تهديد
وتفجرت حمما فذوقى بأسها   يا من عبثت بسلمها المنشود
وتفاءلى بالنحس يا مولودة   بين القبور فأنت شر وليد
فى التيه كان أبوك يفترش الحصا   ويطوف بين الشوك والجلمود
ويعيش فى دنيا الظلام، ولم يكن   كأبيك أجدر بالليالى السود
وأتيت أنت ، وما ضحكت لحادث   إلا لطيف شبابك الوؤود

***

يا بنت «وايزمان» أى براقش   أنت التى قوضت كل مشيد ؟
هـذا المشرد فى المفاوز هل له   غير الصحارى الجرد والصيخود
قذفت به الآفاق شر مطارد   فأراح بعد الذل والتشريد
واستطعم البلد الكريم فما رأى   غير النعـــيم وظله الممدود
فإذا به يسعى ليصبح سيداً   من لم يعش فى الأرض غير مسود !

***

يا بنت « وايزمان » لم أر طفلة   إلاك منـــذرة بشر وعيد
ولدتك فى مهد الجحيم سياسة   شوهاء ، ما أشقاك من مولود
هـذى القنابل وهى تمطر ترة   عن جانبيك وصرخة البارود
والمدفع الضخم المجلجل صوته   فى جنب كل مجاجل عربيد
والزاحفون عليك فى هبواتهم   من كل جبار الجنان عنيد
والطائرات تشق آفاق الدجى   وتئز صـــارخة أزيز رعود
وافتك أحنى من عواطف مرضع   تحميك بين سـواعد وزنود
وأتتك من شتى الجهات أنامل   حمر تداعب منك حمر مهود
فترقبى سيل الكتائب عارماً   أوفى على تاريخك المهدود
واستقبلى زمر الجنود تلاحقت   غاراتها موصولة بجنـــود
من كل خواض الدماء إذا انتخى   لبس الحديد على أمض حديد
أبناء يثرب والفرات وجلق   والنيل ، يا للزاحفين الصيد
الذائدين عن الديار غزاتها   والحارسين تراث خير جدود
والقائلين إذا استثيرت عزمة   للأرض يا ذات الشوامخ ميدى

***

يا بنت « وايزمان » أية قصة   خطتك فوق الماء كف بليد !
وخرافة العصر الحديث أما رأوا   إلاك ضحكة «مجلس» محشود؟
هم قهقهوا فخرجت من أفواههم   زبداً تناثر فوق « تل » جليد
ما ذا لإسرائيل يالك نبأة   مكذوبة حتى على التلمود ؟ !
قد لفقتك عصابة منبـــوذة   ما بين مهزوم وبين شريد
وتعهدتك عصائب أمثالهـــا   من «عابد» ذهباً ومن «معبود»
ألزمرة العجل المجوف يبتنى   ملك وقد عاشوا أذل عبيد ؟
أم للذين تعاهدوا وتحالفوا   ألا يدينوا باحترام عهود ؟ !
الغادرين وتلك أم طباعهم   تصل الطريف بأوليات تليد
لكنه الغرب المـــدل برأيه   يعلى على حنق وغل حقود
المعتز بقوة ما شـــوهت   غير السلام وطيفه المكدود
والحاكم العاتى ، ورب مسلط   يقضى بحكم ليس بالمردود
فإذا العدالة قهقهات معربد   عبثت بجفنيه ابنة العنقود
وإذا الضمير المالى مطية   باتت تصرفها شراذم «هود»

***

يا حاقدين تذكروا تاريخكم   بالأمس إن الأمس غير بعيد
أيام كان الموت يجثم فوقكم   والنار فى الآفاق ذات وقود
والأرعن المجنون يشعل زيتها
فى الأرض ، فى الأجواء ، فوق البيد
والوطن العربى يحرس مجدكم   بيدى مغيث فى الخطوب نجيد
وجراحكم وهى العميقة لم تنل   لولاه من رء ولا تضميد
لكنه طبع القراصنة الألى   جبلوا على غدر وكذب وعود
هم أرهقونا غاصبين وكبلوا   أوطاننا بسلاسل وقيود
واستنزفوا منا الدماء فما شفوا   غلا ولا نقموا حشا المفئود
فى كل يوم ألف حر ترتوى   منه الرمال دماً ، وألف شهيد
فى مصر، فى بغداد ، فى سورية   فى المغرب الأقصى وكل صعيد
وعلى فلسطين استفزوا عصبة   ما بين آفاق وبين طريد
وتآمروا ألا يروها حـــرة   تحيا بلا كدر ولا تنكيد

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

كرسي شوقي :

كتب الأستاذ توفيق الحكيم في العدد الأخير من « أخبار اليوم » مقالاً بعنوان « كرسي شوقي » بين فيه أهمية إنشاء كرسي في الجامعة للمغفور له أحمد شوقي بك ، واستحث أولي الأمر أن ينفذوا القرار القاضي بإنشاء هذا الكرسي في جامعة فؤاد والذي اتخذ من قبل ولم ينفذ إلى الآن . ثم تساءل عمن يصلح للتعيين في هذا الكرسي ، ورأى « أن الاختيار يجب أن يكون في نطاق أساتذة من خارج الجامعة ، لما في هذا الكرسي من لون خاص يحتاج إلى أسلوب خاص في البحث والتدريس » ثم قال :

فإذا الحثالة في الظلام يقودها للخزي كل مذمم رعديد
وإذا الخناجر لم تجد غمداً سوى أحشاء مرضعة ونحر وليد
و بـ «دير ياسين» وأي جريمة كان الجزاء لها بـ «دير سنيد»
وحشية لو أنها من مخلب هانت ولكن من أكف قرود

***

يا مشرق التأريخ لست بمشرق أضفى على التاريخ كل عتيد
إن لم تثر كالنار شب ضرامها وتصاعدت حمراء بعد خمود
وتهب كالريح الغضوب تنفست واستيقظت هوجاء بعد ركود
فالصمت طال بنا وخزي أن نرى عبث السنين بمجدنا المفقود
عمرت ميادين النضال وحان أن تهتز دنيا الشرق بعد جمود

***

أرض السلام وما شجيت لموطن إلاك أو ذوبت فيه نشيدي
إن طال ليلك عابساً فترقبي بسمات فجر في الظلام جديد

(القاهرة) إبراهيم الوائلي

« ما هداني البحث إلا إلى رجل واحد اجتمع له كل ما يراد من صفات ، هو الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فهو قد اشتغل طويلا بتدريس الأدب العربي في مصر وخارجها ، وله بشوقي معرفة ، وهو أديب كبير ذواقة للشعر والنثر ، حام وحارس للبلاغة ، ومؤلف تاريخ الأدب العربي في مجلدات لا تخلو منها مدرسة ولا يستغني عنها مدرس ، وله بعد من طول الباع ورسوخ القدم ، والرغبة في البحث والدأب على الاستقصاء ، ما يجعل لهذا الكرسي قدراً ويكفل له مقاماً في المحيط الفكري والأدبي في مصر والبلاد العربية » .

وهذا الذي يشير به الأستاذ الحكيم من اختيار أستاذ من خارج الجامعة لم يحدث بعد عندنا ، فلا تزال الجامعة قاصرة أمرها على أساتذتها ، ولست أدري هل فكرت في الانتفاع بأعلام الأساتذة « غير الرسميين » أو لم تخطر لها هذه الفكرة بعد ؟ والواقع أن هؤلاء الأعلام أساتذة في جامعة ليس لها مكان محدود ولا نظام موضوع .

ومن تضم طلبة من خريجي الجامعات الرسمية النظامية وغيرهم ، وهم ينهلون فيها ما توجه إليه الجامعات والمعاهد ... ومم هذه الجامعة إن شئت بما تشاء من الأسماء ، وحسبي أن أقول إن أساتذتها هم هؤلاء الأعلام الذين يقرؤهم الناس في الكتب والصحف والمجلات .

فهل تقبل الجامعة الرسمية أن تتعاون مع هذه الجامعة التي قدمت صفتها دون تسميتها ، فتنتدب بعض أساتذتها ولو على سبيل « التطعيم » لكرسي شوقي ولغيره ... ؟

أما كرسي شوقي فالأليق به خاصة أستاذ من خارج الجامعة ، لأن شوقي نفسه من خارجها ، وقد كان من أساتذة « الجامعة العامة » إن راقك هذا الاسم ... فمن التناسق أن يكون أستاذ كرسيه من لونه .

اللغة العربية في هيئة الأمم :

أذاعت وكالة الأنباء العربية من لندن أن الأوساط العربية هناك لم تقابل بالارتياح النبأ الوارد من القاهرة بأن الدول العربية ستطلب قبول اللغة العربية لغة رسمية في هيئة الأمم المتحدة .

وأرجعت عدم الارتياح هذا إلى أمرين : الأول أن « مساومة الكتلات » لبلوغ هذه الغاية ستضعف من مقدرة العرب على المساومة في مسائل أهم من ذلك . والأمر الثاني أنه لو تركت جانباً مسألة الكبرياء والزهو القوى ، فالمعروف أن مندوبي العرب يجيدون اللغات المتداولة في هيئة الأمم ، فإذا تحدثوا بالعربية فلن يكون لسماع خطبهم مترجمة الأثر الذي تحدثه براعتهم في الإنجليزية أو الفرنسية .

والأمران كلاهما لغو وكلام فارغ ... فادخار الجهد من مساومة المساومة عجز وكسل ، على أن ظفر العرب بقبول لغتهم رسمية في هيئة الأمم يقوى مركزهم الأدبي فيها ، وليست مسألة الكبرياء والزهو القوى مما يترك جانباً ، فإن لهما أثراً نفسياً في استثمار العرب عزتهم وكرامتهم ومواصلة كفاحهم ، ولها نفس الأثر في نظر مندوبي الغرب إلى العرب نظرة الند إلى الند ، لا نظرة المتسلط إلى الضارع . ومن هنا ينعكس الأمر كما يقدره أولئك المقدرون ، فتسهل المساومة في المسائل الأخرى .

وما دامت المسألة مساومات وكتلات فإذا تجدي البراعة في الإنجليزية أو الفرنسية التي يقال إنها ستفقد في الترجمة ؟ إن مندوب روسيا — مثلا — يتحدث بالروسية في هيئة الأمم ، وينام سائر المندوبين حتى ينتهي ، ثم يترجم كلامه « فاقداً » البراعة ... فهل تخسر روسيا بذلك شيئاً ؟ وهل يفوتها غنم من غنائم أهل البراعة ؟

إذن دعوا العربية تسير ، فلن تعوق إن لم تبلغ . وإذا خسرنا الإنصاف من ذئاب الغرب وكسبنا الكبرياء والزهو القوى فلم نخسر شيئاً ، لأن الشعور بالكبرياء والزهو سيعيننا على انتزاع الإنصاف منهم بغير الخطابة والبراعة .

زهرة إذاعية :

قرر مجلس الإذاعة الأعلى في اجتماعه المنعقد يوم الأربعاء الماضي ، إيفاد كل من محمد قاسم بك المدير العام للإذاعة ، وكريم ثابت بك مستشارها ، لحضور مؤتمر الإذاعة الذي سيعقد بإيطاليا فيما بين ١٤ و١٩ سبتمبر الحالي ، وزيارة محطات الإذاعة في انجلترا وفرنسا وسويسرا ، لاقتباس النظم التي تلائم الإذاعة في مصر .

وفي هذا القرار مسألتان : الأولى حضور المدير والمستشار المؤتمر ، وليست هذه المسألة بدعا ، فما أكثر المؤتمرات ، وما أكثر من يوفدون إليها من كبار الموظفين ، وما أكثر ما تنفقه الحكومة في هذا السبيل ! وليس يذهب كل ذلك سدى .. فإن لم تظهر له نتائج عملية فيكفي أن يتمتع حضرات المندوبين بالرحلات ، وأن يستجموا ، كي يواصلوا بعد عودتهم جلائل الأعمال .

أما المسألة الثانية التي يشتمل عليها ذلك القرار ، فهي زيارة المدير العام للإذاعة ومستشارها محطات الإذاعة بالبلاد المذكورة . وتستلزم هذه الزيارة طبعا السفر إلى تلك البلاد والتنقل بينها والإقامة في كل منها أياماً أو أسابيع . وسينفقان في كل ذلك مبلغاً من المال لا بد أن يكون كبيراً ، تصرفه خزانة الإذاعة دون أن تصطنع في صرفه ما تصطنعه في أجور الفنانين والمحدثين بها من التمهل والإبطاء .

والثانية من هذه الرحلة الطويلة الباهظة ، اقتباس النظم التي تلائم الإذاعة في مصر ، كما يقول القرار ، فالغرض لا يتعلق بالناحية الهندسية الفنية الآلية ، وإلا كان من يوفد غير المدير والمستشار ، واستحق الأمر أن ينتقل الوفد من مصر إلى تلك البلاد ، وإنما يتعلق الغرض بالبرامج ، والبرامج يمكن سماعها في مصر واقتباس ما يلائم مصر منها ، فلم إذن زيارة محطات الإذاعة ؟ ألوقوف على نظام الحجرات والمكاتب بها ، أم للاطلاع على أصول ما يذاع .. ؟

على أن الأستاذ محمد قاسم بك رجل كبير ممدود له في الخدمة بعد سن المعاش ، أفلا ينبغي أن يستبدل به من يمكن أن يستفاد منه طويلا بعد أداء هذه « المهمة » إن صح أنها مهمة ... ؟

أو لست ترى في هذه الزيارة عدم اعتراف بالعمل الإذاعي من حيث أن الغرض منه أن ينقل إليك كل شيء في مكانك ، ولا يجشمك أن تنتقل إلى مكانه ؟!

للدولة شخصيتان في الأدب والفن :

قال محدثي : أتعلم لم فازت قصة « البغل والإبريق » التي ذكرت شيئاً من أمرها ، بالجائزة الأولى في مسابقة القصة بمهرجان الشباب ؟

— أثمت شيء غير تقدير المحكمين لها ؟

— هو تقدير المحكمين طبعاً ، ولكن دخل في هذا التقدير عنصر آخر غير قيمة القصة الفنية ، فلم تكن أحسن قصة قدمت على الإطلاق ، وإنما رأتها اللجنة خير القصص الخالية من « فتاة الحب » .

لم أكن في حاجة إلى المزيد لأدرك ما يرى إليه محدثي ،

فهرجان الشباب الأدبى نظمته وزارة المعارف ، فهى إذن تحرص على الوقار والاحتشام فى هـذه المسابقات الأدبية ، كما تحرص عليهما فيما يقـدم إلى التلاميذ فى المدارس من نصوص الأدب ، فالمتبع فى اختيار هـذه النصوص أن تـكون من أغراض غير الغزل كالمدح والرثاء والفخر والحكم والأمثال ، وإن كان الحال قد تغير قليلا فى السنوات الأخيرة إذ صار بعض الأساتذة لا يجد بأساً فى قطع من الغزل « المعتدل » يجتذب بها التلاميذ ويحببهم فى الأدب ، ويسرى عنهم عناء الحكم والأمثال والنصائح وما إليها

جال هذا بخاطرى على أثر ذلك الحديث . ثم قلت فى نفسى : إن بعض المعاهد التى تشرف عليها وزارة المعارف ، تقيم فى بعض الأحيان حفلات عامة فيها تمثيل وغناء ورقص ، وفى بعض هذه الفنون يختلط الفتيان بالفتيات ، وقد تقتضى الحال تمثيل الحب . ووزارة الشؤون الاجتماعية تشرف على المسرح والسينما والإذاعة وتـكاد هـذه الثلاثة تقوم على الحب من تمثيل وغناء ورقص ، وكثيراً ما يكون فيها الحب الذى هو أكثر من الحب ! والوزارتان تشتركان فى استقدام الراقصات من أوربا كفتيات (الباليه) للتمثيل والرقص على مسرح الأوبرا .

ثم قلت فى نفسى أيضاً : يا عجباً ! أللدولة شخصيتان ، إحداهما متزمتة وقور والأخرى عصرية (اسبور) ؟ ولم كانت الأولى من قسمة الأدب وظفر بالثانية سائر الفنون ؟ قد يـكون ذلك من طبيعة المشرفين على الأدب فى الوزارة ومن طبيعة المشرفين على الفنون الأخرى فى الحكومة وفى خارج الحكومة .

ولـكن ألا ترى أن الأدب أولى بالشخصية الثانيـة ، فهو كلام ، وجوه أكثر أمناً من غيره ، وقد كان بعض أسلافنا الذين لم يدركوا اختراع كلمة «الصدق الفنى» يتغزلون ويصفون الحسان ويقولون فى الخمر (غير ما قال مالك) ويصفون فعلها بالنفوس ، ولم يذق أحد منهم طعماً للحب أو للخمر . ولم ينكر عليهم أحد ما يقولون ، بل كان منهم من يعد من الفقهاء والصالحين . أما الفنون الأخرى غير الأدب وخاصة التمثيل فالحب فيها عملى . والأدب لا يفهمه إلا الكبار « العقلاء » أما المسرح والسينما والإذاعة فهى فى متناول الجميع من صغار وكبار، وخاصة الإذاعة، فهى لا يمكن التنحى منها ، وهى تقتحم كل بيت بكل بذىء من الأغانى و (المنلوجات) لا بالتعبير عن العواطف المهذبة فقط ، وفى جملة من يسمعها التلاميذ والتلميذات الذين تحرص وزارة المعارف على « وقايتهم » من الحب فى الأدب .

فهل ترضى الدولة بما ينطبق عليها من « تعدد الشخصية » أو ترى تراجع نفسها لتتلافى هذا التعدد ؟

اللجنة الثقافية بلبنان :

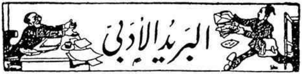
بدأت اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية اجتماعاتها يوم ٢٨ أغسطس الماضى فى بحمدون بلبنان . وقد عقدت إلى وقت كتابة هذا أربع جلسات نظرت فيها فى مسائل هامة وانتهت فيها إلى قرارات ، ولا تزال توالى اجتماعاتها لنظر بقية المسائل .

ومما نظرت فيه شؤون الإذاعة والسينما الثقافية ، فقررت توصية مجلس الجامعة بمشروع إنشاء محطة إذاعة عربية كبرى ، وتقوية الإذاعات الحالية ريثما يتم تنفيذ المشروع ، كما تقرر الدعوة إلى عقد مؤتمر لمديرى محطات الإذاعة للبحث فى أنجع الوسائل التى تكفل تنسيق البرامج الثقافية العربية المشتركة وتنظيمها . وتقرر أيضاً الدعوة إلى مؤتمر للخبراء الفنيين فى السينما للبحث فى ترقية السينما العربية وإنتاج أفلام دعاية للبلاد العربية فى الخارج وقد اشتكى الأعضاء من أن الأفلام العربية ليست فى المستوى الراقى الذى ينشد منها وأنها تنافى أحياناً الأخلاق العامة والمبادىء القومية ورجوا توصية الحكومات العربية لإصلاح هذا النقص .

وقررت اللجنة تنظيم مهرجان حافل يقام فى إحدى العواصم العربية تخليداً لذكرى ابن سينا ، ووضعت برنامجاً لتنظيم هذا المهرجان ، وقررت تأليف لجنة لنشر آثار ابن سينا ، كما قررت إنشاء مؤسسة علمية تذكارية يطلق عليها اسم الفيلسوف العظيم لتخليد ذكراه .

ونظرت اللجنة قضية الأساتذة والطلاب ورجال الفكر الفلسطينيين ، واتخذت فيها قرارات هامة ستعرض على الجهات المختصة لإقرارها . ومما تضمنته توصية الدول العربية لاستخدام الأساتذة الفلسطينيين الفنيين ، وقبول الطلاب الفلسطينيين بالمجان فى معاهد الحكومات العربية ، وفتح مدارس فى الأماكن التى يكثر فيها الفلسطينيون خارج فلسطين ؛ وقررت أن تطلب إلى اللجنة السياسية العمل على تأمين النفقات للطلاب الفلسطينيين فى أوربا وأمريكا .

عباس خضر



المفعول معه ، وواو المعية :

كتب الأستاذ عبد الستار فراج كلمة حول « واو المعية ، والمفعول معه » أورد فيها أموراً فى حاجة إلى المناقشة .

١ — قال فى مقام الاستشهاد على إفادة الواو معنى مع . أن قوله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان » أنهم تبوءوا الدار مع الإيمان .

وقد أورد الصبان فى حاشيته على الأشمونى هـذا الشاهد ، لـكن النسفى فسره بقوله و (أخلصوا) الإيمان يعنى بتقدير فعل مناسب كقوله :

« علفتها تبناً وماء بارداً » يشير بهذا إلى أن ما بعـد الواو لا يصح اشتراكه فى الحـكم « الحدث » مع ما قبلها لاختلاف المدلول .

وقد سار على ذلك التأويل الفراء والفارسى ، وأما المازنى ، والمبرد وأبو عبيـدة ، والأصمعى ، واليزيدى ؛ فقد قدروا فعلا يصح انصبابه عليهما وهو (أنلت) .

وعلى القولين يمكن تخريج الآية بأن (الإيمـان) إما أن يكون منصوباً (يلزموا) ، أو (ألفوا وأخلصوا) ؛ فسـياق الأستاذ بعيد عن الدقة لأن الواو تقتضى معانى متعددة ؛ فهى تفيد الاشتراك ، أو المعية ، أو الدلالة على العطف من دون تأويل ، أو بقاءها مع حذف المعطوف عليه لاختصاصها هى والفاء العاطفة به

٢ — غير أننـا حين نفارق بين واو العطف ، وواو المعية يلزمنا التقريب إلى إيضاح مرادنا فى صورة بينة ، ونحن نظاهره على نقده تعريف المفعول معـه ، لـكن الأمثلة توضح القاعدة وتحدد معانى الألفاظ الاصطلاحية . فنقول لتلاميذنا فى (خرجت والأصيل ، وسرت والشاطىء ، واستذكرت والمصباح) : إن ما بعد الواو لا يصح أن يقع منه الحدث ، إذ الأصيل لا يخرج ، والشـاطىء لا يسير ، والمصباح لا يستذكر ، وإنما حصلت الأحداث مقارنة لهذه الأشياء ، وبهذا الأسلوب الإفهامى نستدنى القاعدة إلى الأفهام !

٣ — قال : إنه يحيل قول الشاعر : « لا تنه عن خلق وتأتى مثله إلى الحال ، وقد تجوز فى رأيه تجوزاً بعيداً ، فقد فرق (الرضى) بين واو الحال ، وواو العطف ، وواو المعية بما يفيد أنهم — أعنى النحاة — لما قصدوا معنى المصاحبة نصبوا المضارع بعدها ليكون السياق مرشداً فى أول الأمر إلى أن الواو ليست للعطف ، أما واو الحال — وأكثر دخولها على الأسمية — ؛ فالمضارع بعدها فى تقدير مبتدأ محذوف الخبر وجوباً ، فمعنى (قم وأقوم) : وقيامى ثابت .

على أن الطلب : « ما يتوقف تحقق مدلوله على النطق به » ؛ فكأن بينه وبين ما بعده ارتباطاً فيه ترتب حكم ؛ فالنهى عن الخلق مرتبط بملابسـه فعله — أما جملة الحال ؛ فيقصد منها الـكشف أو بيان الهيئة فإذا قلت : « لا تقع فى اللبس وأنت غلطان » كان المعنى النهى عن الوقوع فى اللبس فى حال الغلط ؛ فقد يقع اللبس سهواً على خلاف « لا تقع فى اللبس وتغلط » ؛ فإنه يقتضى النهى عن وقوعها أو وقوع اللبس وحده مع ملابسة الغلط .

وبعد ؛ فهذا ما بدا لنا سقناه للعلم والحق — على قدر ما نعلم — « وفوق كل ذى علم عليم » !

أحمد عبد اللطيف بدر
المدرس ببور سعيد

هأنذا :

اشتهر بين المتأدبين أن الضمير المسبوق بها التنبيه يخبر عنه وجوباً باسم الإشارة الذى يناسبه ، ومثـاله قول الله تعالى : (هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) وقوله جل وعلا : (هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونـكم) . وقول الشاعر :

إن الفتى من يقول هأنذا   ليس الفتى من يقول : كان أبى

وقد غلا كثير منهم فى تطبيق هذا الحـكم غلواً كثيراً ؛ مع تخلفه فى مواطن شتى من كلام البلغاء والعلماء الذين يقتدى برأيهم ؛ كالعلامة (ابن هشام) فإنه أورد هذه القاعدة فى (المغنى) ولـكنه جريا وراء فطرته فرّق بين ما يجب فيه ذلك وما لا يجب

فقال فى مقدمة الكتاب قوله (وهأنا بائع بما أسرته) بدون أن يخبر باسم الإشارة ؛ وقال (البحترى) وهو من هو فى صفاء الأسلوب :

ها هو الشيب لائماً فأفيق واتركيه إن كان غير مفيق

ولا يمكن وقوع (البحترى) فى هذا الخطأ إن كان الحكم السابق مطرداً فى جميع الأحوال ؛ والحق أن النحاة لم يوجبوه ولكن كثيراً من الواقفين على شاطىء العلوم لا يفرقون بين أسلوب وأسلوب ، ولا يتعمقون المباحث العلمية حتى يقفوا على أسرارها ، فيقضوا فى الأمور على بينة ، وإنى — ولا أزكى نفسى — أستطيع أن أعرض على القارىء ما أراه سبباً لتخلف هذه القاعدة فى بعض الحالات ؛ يبدو لى أن الأساليب المقرونة بالتحدى هى التى لا تخلو من أسماء الإشارة ؛ فالآيتان الكريمتان فيهما إنكار شديد ، وعتاب لاذع للمؤمنين الذين لا يزالون يجادلون عن المنافقين وأمثالهم ، والذين لا يزالون يوادونهم ويحبونهم مع استبانة البغضاء فى أفواههم ، وتماديهم فى معاندة الإسلام والكيد للمسلمين ؛ ولما كان هذا اللوم شديداً على نفوس المؤمنين ومظنة لمحاولة التنصل منه حسن الإخبار باسم الإشارة زيادة فى تصوير موجب اللوم حتى كأنه مصور محس لا يمكن التنصل منه ؛ وكذلك الشأن فى البيت فإن معنى التحدى واضح فيه كل الوضوح . (وزيادة فى الفائدة يحسن الإشارة إلى أن بعض المفسرين يعتبر اسم الإشارة فى الآيتين منادى مع حذف حرف النداء) . ثم نرجع إلى صميم البحث فنقول : أما إذا خلا الكلام من معنى التحدى فقد حسن (أو جاز على الأقل) تجريد الكلام من اسم الإشارة ؛ وبهذا يكون (البحترى) على العهد به فى تفهم مقتضى الحال ، والإتيان بما يطابقه من الكلام ، فيكون كلامه جارياً على سجيته : من الجودة والرصانة ، كما كانت الآيتان الكريمتان فى الذروة من البلاغة لأنهما طابقتا كل المطابقة مقتضى الحال .

(الاسكندرية) محمود البشبيشى

كتاب مفتوح إلى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد محمد آل شاكر

كنا عند ظهور كتاب الأغلال لعبد الله القصيمى وتداول آراء بعض العلماء فيه ننتظر رأى فضيلة الشيخ أحمد بن محمد آل شاكر إلا أن فضيلته لأمر لاندريه ، تذرع بالصمت ولم ينبس ببنت شفه فى أغلال القصيمى والآن بمناسبة ظهور رد جديد على الأغلال نفسها من الشيخ محمد بن عبد الرازق آل حمزة ومقدمة من الأستاذ الغمراوى نرى أن الفراغ لا يزال موجوداً لم يسد ولا يصلح وإن يصلح لسد هذا الفراغ إلا كلمة فضيلة الشيخ الشاكر فيه إذ لا يدعى للجلى إلا أخوها . وعليه نرجو فى إلحاح من فضيلة الشيخ الشاكر بيان رأيه الثاقب وكلة العلم فى الموضوع وله من الله الأجر والمثوبة ، ومنا طلبة العلم الشكر الجزيل وإنا لكلمته منتظرون .

(الرياض) عبد الرحمن بن سلوم



فنون الاســـــلام

نقد ودراسة

للدكتور أحمـــــد موسى

تفضل الدكتور زكى محمد حسن وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الآثار الإسلامية فيها ، فأهدى إلى نسخة من كتابه « فنون الإسلام » وهو الكتاب الذى بدا لى عندما قلبت صفحاته أنه ليس من الكتب التى يسهل درسها ونقدها فى وقت قصير ، مما ألزمنى التأنى فى قراءته بإمعان يتناسب مع قيمته وخطره !

والحق أشهد أنى وجدت فى الكتاب كل ما تصبو إليه نفس القارئ من المتعة والتثقيف الفنى ، أما المتعة فلأنه تناول تاريخ فنون الإسلام ونشوئها وتطورها من أقدم عصورها حتى آخر عصر النهضة الأوربية ، وهو موضوع يلذ لكل قارئ الاطلاع عليه ، وأما التثقيف فلأنه حافل زاخر بدراسة محيطة لهذا الموضوع العظيم الشأن من جميع نواحيه ، فى أسلوب الأديب ، فجاء بعيداً عن الجفاف العلمى الخالص ، مع توافر أصوله فى كل صفحة من صفحاته ، مما جعل منه مرجعاً لكل باحث .

والأستاذ الدكتور زكى غنى عن التعريف إلا أنه يهم القارئ أن يعلم أن مؤلف الكتاب (الذى بين أيدينا) حائز على دبلوم الآثار الشرقيه والإسلامية من مدرسة اللوفر ، ودبلوم اللغة الفارسية من مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، فضلاً عن أنه حائز على ليسانس الآداب من الجامعة المصرية ودكتوراه الآداب من السربون .

أما من حيث الناحية العملية فقد كان مساعداً علمياً بمتحف برلين كما كان أميناً لدار الآثار العربية بالقاهرة ، وهو بهذا وبما سبق له تأليفه من كتب فى الفن الإسلامى يدفع بالقارئ لكتابه إلى الاطمئنان الكامل .

ولا أبالغ فى القول بأنه لولا مؤلفه المذكور وما سبقه من مؤلفاته[1] لكان ما أخرج للناس فى لغتنا العربية خاصاً بالفن الإسلامى قليلا ضئيل النفع ، ولعل مما يؤيد هذا ، المراجع التى ذكرها فى ذيل كتابه والتى بلغت ٢٧٠ مرجعاً بالألمانية والانجليزية والفرنسية ، اللهم إلا تسعة عشر مرجعاً جاءت باللغة العربية معظمها فى موضوعين اثنين هما العمارة والخزف ، أما ما تبقى بعد ذلك من الموضوعات فلا توجد له مراجع معتبرة فى اللغة العربية

ولسنا فى مجال البحث عن الأسباب التى أدت إلى الركود العجيب فى الدراسات الفنية بالبلاد الشرقية عموماً وبمصر على وجة الخصوص .

على أن هذا لا يمنع من أن أذكر أنه قد ظهرت بضعة مؤلفات باللغة العربية عدا تلك التى جاء ذكرها ضمن مراجع الدكتور زكى ، كان مؤلفوها من غير المتخصصين ، فكانت كتاباتهم لا تخرج عن محاولات ، فضلاً عن ظهورها فى عالم المطبوعات ، فى وقت كان إقبال الناس فيه على دراسة الفن ومعرفة أسراره ضئيلاً يكاد يكون معدوماً .

ولما كانت مهمة تاريخ الفن هى الاستعراض العلمى لنشوئه وتطوره وارتقائه وأثره ، على أساس التاريخ العام مع تطبيق أصول علوم أخرى ، ولما كان الأسلوب العلمى فى التاريخ العام هو تقسيمه إلى الاقسام الثلاثة المعروفة بالقديم والمتوسط والحديث ، فإن تاريخ الفن مع كونه استعراضاً لنشوء الفن وتطوره وأثره كما ذكرت ، يخضع لنفس القاعدة بغية التبسيط ، ولإيجاد الرابطة الوثيقة بين التاريخ العام وتاريخ الفن ، على اعتبار الانتاج الفنى مقياس الحضارات الصادق .

هذا بيان يدفع بى إلى الخروج عن موضوع الكتاب ؛ فأذكر شيئاً عن تاريخ العلوم والفنون الإسلامية عند الغربيين وعن الدوافع

(١) الفن الإسلامى فى مصر — التصوير فى الإسلام عند الفرس — كنوز الفاطميين — الطولونيون — فى مصر الإسلامية — نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، وهذان الكتابان الأخيران اشترك مع آخرين فى تأليفهما ، وله كتب ترجمها عن اللغات الاوربية أذكر منها تراث الاسلام — وعلم الآثار ترجمه بالاشتراك مع الأستاذ محمود حمزه .

التي حفزتهم إلى العمل في هذا المجال الفسيح .

فعندما قصد رجال كنيسة روما نشر الديانة المسيحية بين شعوب آسيا وأوربا وشمال افريقية رأوا أنه لا مناص من معرفة لغات هذه الشعوب لأنها المفتاح الأوحد إلى قلوبهم ، فنجد أنه لم ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان البابا « اينوسنس » قد أصدر أمره بإنشاء كراسي (جامعية) لتعليم اللغة العربية ، وهو الأمر الذي حافظ على تنفيذه « كليمنس » الرابع و « هونوريوس » الرابع . أما في عهد « كليمنس » الخامس ، فقد تقرر في المؤتمر الكنسي بمدينة فيينا Vienna Synode إعداد معلمين لتدريس اللغة العربية في كل من روما وباريس وأكسفورد وبولونا وسلامنكا كطريق إلى غزو الشرق بما فيه من الكنوز العلمية والأدبية والفنية وغيرها ، وتطور الحال فلم تقتصر هذه العناية على معرفة اللغة العربية لذاتها ، بل ازداد الاهتمام بمعرفة أسرارها وإدراك ما كتب بها من مؤلفات في مختلف العلوم والفنون ، لا للدرس والمعرفة فحسب ؛ بل كذلك للاستيلاء على تلك المؤلفات نفسها كلما سنحت الفرصة ، وهي المؤلفات التي ترجمها العرب عن الأغارقة وغيرهم عدا ما ألفوه ، لكي يتمكن العقل الأوربي من الوقوف على مصدر حضارة العرب ، وعلى ما تركه أرسطو وغيره من رجال المدرسة الأثينية والسكندرية من المؤلفات الزاخرة بالمادة العلمية للافادة منها جميعاً .

وهكذا انتهى الأمر بظهور الكثير من الكتب القيمة باللغة اللاتينية أصلها عربي من تأليف علماء المسلمين ومن اشتغل إلى جانبهم من الشرقيين خلال القرون الوسطى الزاهرة في تاريخ الإسلام .

وجاء دور الانقلاب الديني في أوربا ، وأهم مايعنينا من آثاره انتشار الدراسات الشرقية وزيادة العناية بمعرفة اللغة العربية عند ما كان « علم التفسير » exgesis من العلوم التي ترجع في أصولها إلى المصادر الشرقية لإيضاح نصوص الكتاب المقدس .

هذا إلى جانب الدور الخطير الذي لعبته البعثات التبشيرية الكاثوليكية لنشر المبادئ المسيحية في الشرق ، فخصص البابا « أربان » الثامن في عام ١٦٢٧ لجنة الدعاية الدينية Collegium pro fide propaganda فريقاً من رجال اللاهوت لدراسة اللغات الشرقية وفي مقدمتها اللغة العربية .

وصفوة القول أن الدراسة العلمية السليمة لهذه اللغات وعلى رأسها لغة الضاد لم تبدأ إلا منذ منتصف القرن الثامن عشر بعدما خرجت عن نطاق الكنيسة ودخلت في نطاق الاستعمار المنظم ، فنذكر وليم جونز الإنجليزي الذي وجه نظر بلاده (بلغة السياسة) إلى الدراسات الشرقية وما ينتظر من ورائها من فوائد ، وذلك في مقاله الافتتاحي بمناسبة إنشاء الجمعية الأسيوية في عام ١٧٨٤ ، كما نذكر سلفستر دي ساسي صاحب المجهودات البارزة للانتفاع بالمؤلفات العربية وكتاب العرب !

وإذا كانت الدراسات الشرقية في مختلف العلوم قد سارت على غير نشاط متشابه نتيجة الاهتمام بفروع منها دون الأخرى ؛ فإن فجر القرن التاسع عشر قد عرف بأنه فجر النشاط الشامل لمختلف نواحي تلك الدراسات ، فبدأ التخصص يظهر في أفق العلم ولا سيما بعد تأسيس الجمعيات العلمية في كل دولة من الدول العظمى التي اهتمت بالشرق ، فنجد جمعية العلوم الشرقية الألمانية تأسست في سنة ١٨٤٥ بمدينة ليبزج ، ومعهد اللغات الشرقية ومدرستها في سنة ١٨٨٧ ببرلين ، على حين تأسست جمعية فيينا قبل ذلك باسم الأكاديمية الشرقية ، أما في باريس فقد عرفت باسم Ecole spéciale des Langues orientales vivantes وعدا هذه جمعيات لندن وبطرسبرج وغيرها .

كل هذا من أجل الشرق بما حواه ، ولم تكن هناك وسيلة لغزوه أفعل من وسيلة العلم ، فلن نجد في أوربا من ينكر الخير العميم الذي جاء كالغيث على أهل أوربا نتيجة لتأسيس تلك الجميات التي هب الكثيرون من أعضائها للرحيل إلى الشرق للدرس الجامع الشامل والقيام بأعمال الحفر الأثري استكمالاً لما شاهدوه منها ظاهراً يسحر الألباب !

ولهذا فلا عجب عند ما نجد كل المراجع الحديثة ذات القيمة العلمية في البحوث الشرقية والإسلامية باللغات الأوربية .

ولكن الموضوع لا يقف عند هذا الحد ، إذ اتضح بعد وضع المؤلفات عن الشرق وما فيه افتقارها إلى الأسلوب العلمي الذي لا يكون إلا بالتخصص ، ولما كانت هذه المؤلفات قد اشتملت ضمناً على التراث الفني المجيد ، وفيه مجال فسيح الأفق لا يصل إلى مداه إلا الدارس ، رأينا هؤلاء الأوربيين يعطون القوس باريها !

وهنا أراني مضطراً مرة أخرى إلى التعريج على قصة تاريخ الفن ما دمنا في معرض الكلام عن « فنون الإسلام » :

فقد بدأ الكاتب الرومانى بلينيوس كتابه عن الفن وتاريخه (فى العصر القديم) فى القرن الأول المسيحى ، ووضع الكاتب الإغريقى بوزانياس فى النصف الثانى من القرن الثانى المسيحى كتابه الشامل لبيانات وأوصاف وإيضاحات فنية نافعة كانت بأسلوب أقرب إلى السرد منه إلى النقد .

ولم يكن الأسلوب مختلفاً عن ذلك كثيراً فى القرون الوسطى فلم يكن ما كتب يزيد عن وصف عام للمعابر ، وإيضاح لما استنفد فى إنشائها من مجهود .

وقد ظهرت بعدئذ كتب فى تاريخ الفن العام فى ثوب علمى نتيجة لإقبال الناس على مؤلفات الأقدمين ودراسة آثارهم والنقل عنهم ، فقام فريق من أهل العلم بتفسير ما حرره فيتروفيوس ، على حين اشتغل فريق آخر بتسجيل الكتابات والنقوش التى وجدت على كثير من الآثار مع تفسيرات وشروح .

ومهما يكن نوع هذه المجهودات والطريقة التى سار عليها أصحابها ، فإنه لا يمكننا أن نرجع المحاولات الصائبة فى مضمار تاريخ الفن إلى أبعد من القرن السادس عشر ، عند ما كتب لأول مرة المؤرخ اللاتينى « فاسارى » الذى تتلمذ فى الفن على ميكلانجلو، والذى يعد بحق إمام مؤرخى الفن، كتابه القيم الذى حوى تراجم مفيدة لرجال الفن فى إيطاليا .

وهناك مؤلفات جديرة بالذكر ، منها كتاب «المشاهدات» لكارل فان ماندر ، وكتاب أكاديمية العمارة والنحت والتصوير ليواخيم فون ساندررت ، وكتاب برنارد دى مونفاكو ، فضلا عن كتاب يواخيم فينكلمان مؤسس علم الأركيولوجيا سنة ١٧٤٥ وجاء بعد هؤلاء كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم .

إلى هذا الحين كانت كل المجهودات فردية ، كما كان اتجاه كل مؤلف اتجاهاً خاصاً ولفن بعينه ، فكان الراغب فى المعرفة الفنية العامة لا يستطيع الوصول إلى بغيته ، حتى آن الأوان وتكاتف فريق من علماء الألمان كسابق تكاتفهم فى مضمار تاريخ الفلسفة وغيرها — على إخراج مؤلف شامل ، فظهر فى الأفق كتاب « شناز » وبعده بقليل كتاب « لوبكة » وبعده كتاب عظيم الشأن هو « تاريخ الفن العام » لمؤلفه أنطون شبرنجر ، والذى يطبع حتى اليوم بإضافات مستمرة فى مجلدات ستة تعتبر مرجعاً طيباً لكل مؤرخ فنى .

وقسموا كتبهم التى أخرجوها فى مجلدات إلى عصور ، والعصور إلى مراحل ، ووزعت المراحل على الشعوب توزيعاً جغرافياً حرصاً على استبقاء آثار التجاور وتشابه الأجواء والبيئات على الإنتاج الفنى فضلا عن سهولة التناول ، فجاءت المؤلفات ومنها ما يخص الفن القديم من شرقى وغربى ، فمصر وبابل وآشور والعراق والفرس والهند والصين فى كفة ، والإغريق والرومان فى كفة أخرى .

وهكذا كان التقسيم لفن العصر المتوسط ولفن العصر الحديث من حيث المنهج والأسلوب الدرامى .

هذ إلى جانب تقسيم الإنتاج الفنى نفسه إلى عمارة ونحت وتصوير وفنون رفيعة الخ .

وظل البحث الفنى فى تقدم مستمر بتقدم أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار إلى جانب ترميم وإصلاح المعابر والمبانى من كنائس وقصور ومساجد الخ ، فوجدنا كتباً عن فن قائم بذاته كالفن الإغريقى وحده ، كما وجدنا مجلدات تخص فن النحت دون سواه . ولم تقف الحال عند هذا ، بل ترى فريقاً من عشاق الفن وقد اشتغل بتأريخ حياة مثال بعينه ؛ فنجد بحثاً قائماً بذاته عن فيدياس مثلا .

أما التقدم فى إخراج هذه الكتب فكان من ثلاث نواح ، الأولى أن تأليفها كان مبنياً على أصول البحث العلمى وما يحتاج إليه هذا من الأناة فى الموازنة والمقارنة ، وفى ذكر المراجع والمصادر عند عرض رأى من الآراء الفنية أو مناقشته ، والثانية تزويدها بالصور الفوتوغرافية القيمة التى أماطت اللثام عن كثير من الدقائق التى لا يمكن فحصها فى مكانها الأصلى ، إلى جانب تكاليف السفر ومشقته وما يستنفده من وقت ومجهود ، والثالثة تقدم فن الطباعة تقدماً عجيباً جمل فى الأمكان الجمع بين لوازم العلم من ناحية تنويع حروف الطباعة لملاءمة البحث وتمييز فصوله وأبوابه ، وتلوين الأشكال والصور بألوان تحاكى الأصل — وبين الدقة والعناية ، بل والأناقة فى الإخراج ، فأصبحت كتب الفن فى كل من أوربا وأمريكا أنموذجاً للكمال .

هذا إلى جانب ما أخرج للراغبين من معاجم ودوائر معارف وموسوعات ومجلات ونشرات وتقارير سنوية وغير سنوية للدراسات والاكتشافات الفنية والأثرية وأصول النقد الفنى والتقدم فى النقد المقارن .

كانت كل هذه المجهودات تسير قدماً ونحن فى نوم عميق !

على أن هذا النوم العميق لم يمنع من ظهور بعض الكتب المترجمة عن الفن المصرى حيناً وعن الفن فى القرون الوسطى .

وفى عصر النهضة وما بعده حيناً آخر ، وهى كتب أكثر ما يمكن أن يقال فيها أنها محاولات وترجمات لكتب فنية لا تتفق أصلا مع حاجة المصريين ولا مع سابق دراساتهم إلى ذلك الحين على الأقل ، كما كان بعضها أقرب إلى « كتالوجات » الصور منه إلى الكتب الدراسية ذات الأسلوب النافع . ولهذا جاءت ضعيفة الإخراج قليلة المادة ضئيلة النفع ، لا لشيء سوى عدم تخصص مترجميها أومؤلفيها من ناحية وعدم وجود القارىء للكتب الفنية القيمة التى تدفع بالمتخصصين إلى العمل من ناحية أخرى .

ولقد ظهرت بعد الثورة المصرية بعض كتب قيمة إلى جانب مقالات وبحوث ظهرت فى مجلات محترمة عن الفن واتجاهاته ومدارسه . فإذا ما ظهر اليوم كتاب « فنون الإسلام » لتنوير الأذهان نحو موضوع من أخطر موضوعات الثقافة الفنية الإسلامية ؛ فإنه لا يسعنا إلا تهنئة القراء الشرقيين عموماً والمصريين على وجه الخصوص بهذا الكتاب الجامع الشامل !

والحق أشهد أنه من أشق الموضوعات التى تحتاج إلى التريث وطول الأناة وسعة الاطلاع ، فعندما يتصدى الكاتب لفنون الإسلام جميعاً إنما يجابه موضوعاً عسيراً ، لا يتغلب عليه إلا القادرون .

جاء الكتاب فى نحو ٧٥٠ صفحة من القطع المتوسط شاملا للعمارة والنحت والتصوير وأعمال النجارة والقاشانى والفنون الزخرفية بأوسع معانى الكلمة ، وذلك فى الأقطار الإسلامية مرتبة ومبوبة تبويباً خاضعاً للاسلوب العلمى .

وإذا علمت بأن فنون الإسلام فى مجموعها تقف أمام الفنون الوثنية الكلاسيكية موقف الناهض ، وأنها قامت على أكتاف الفنون المسيحية فى أول أمرها ثم أخذت تستقل رويداً رويداً حتى تم لها الوجود والكيان القائم بنفسه ؛ استطعت تقدير المشقة والمجهود المبذولين لبيان هذا الاتجاه بقلم كاتب مصرى مسلم !

ولعل من الخير أن نذكر أن المحور الذى تدور حوله الفنون المسيحية المبكرة وما بعدها كان دينياً خالصاً ؛ فأقيمت الكنائس مزودة بالتماثيل الآدمية وغير الآدمية ومحلاة بالتصاوير الدينية وما إليها ، على حين كان المحور الذى تدور حوله الفنون الإسلامية هو إنشاء المساجد والجوامع مجردة من النحت الآدمى والصور الدينية ، وهذا موضوع تناوله المؤلف بالبيان فى كتابه .

وقد اختص الدكتور زكى موضوع التصوير الإسلامى بأكبر عدد من الصفحات (٧٨ صفحة) تناول المؤلف فيها ضمناً ما قيل من الأسباب التى جعلت منه فناً جامداً — وأخذ يناقش مختلف الآراء بأسلوبه الممتع . كما اختص الفنون المدنية بعناية نجلت فى نحو ٧٣ صفحة ، أما المنسوجات فقد جاءت فى ٥٣ صفحة ، والحفر على الخشب فى ٥١ صفحة ، ثم يلى ذلك الخزف والسجاد والزجاج والبلور الخ . وهى أبواب كما ترى تصلح لأن تكون كتباً مستقلة ، ولكن المؤلف شاء أن يكون كتابه مرجعاً لكل باحث ومثقفاً لكل مريد .

ثم جاءت بعض الصور التى بلغ عددها جميعاً ٧٥٠ صورة على غير الدرجة المرجوة من الدقة والظهور وهى المرقومة ١٥٢ و ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ و ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٨٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ و ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٦٤ ، إلا أن هذا لا يمنع من تسجيل النجاح فهذه كلها لا تزيد عن ٤ فى المائة من مجموع صور الكتاب التى جاءت شرحاً وإيضاحاً للموضوع .

أما الأساليب الفنية الإسلامية فقد تناولها المؤلف منذ نشأتها فى القرن الأول الهجرى حتى غزته الأساليب الفنية الأوربية فى القرن الثامن عشر الميلادى بإفاضة وبيان شامل .

وربما كان من أوجه الكمال لو أن الدكتور ذكر أمام كل مرجع المكان الموجود فيه ، ذلك لأن عدد المراجع وقد بلغ ٢٧٠ يعد فى ذاته مفتاحاً لكل باحث ، فإذا علم مايوجد منها بدار الكتب المصرية ، وما بالجمعية الجغرافية وما تضمن منها مجموعة المعهد المصرى ، ومكتبة الجامعة ومكتبة كلية الآداب ؛ فإنه ولا شك يختصر الطريق ويصل إلى ما يبتغيه .

وقد حرص المؤلف على تذييل كتابه بكشاف فى نحو ٢٣ صفحة وبخريطتين تخطيطيتين أولاهما لإيران ، وثانيهما للشرق الأدنى وبلاد المغرب .

فلعلى ألمس فى القريب إقبال الناس على قراءة هذا الكتاب الذى أعده باقة زهر يانعة قدمها المؤلف إلى أبناء اللغة العربية ، فى أنسب الأوقات .

أحمد موسى

كبير المفتشين بمصلحة المساحة المصرية